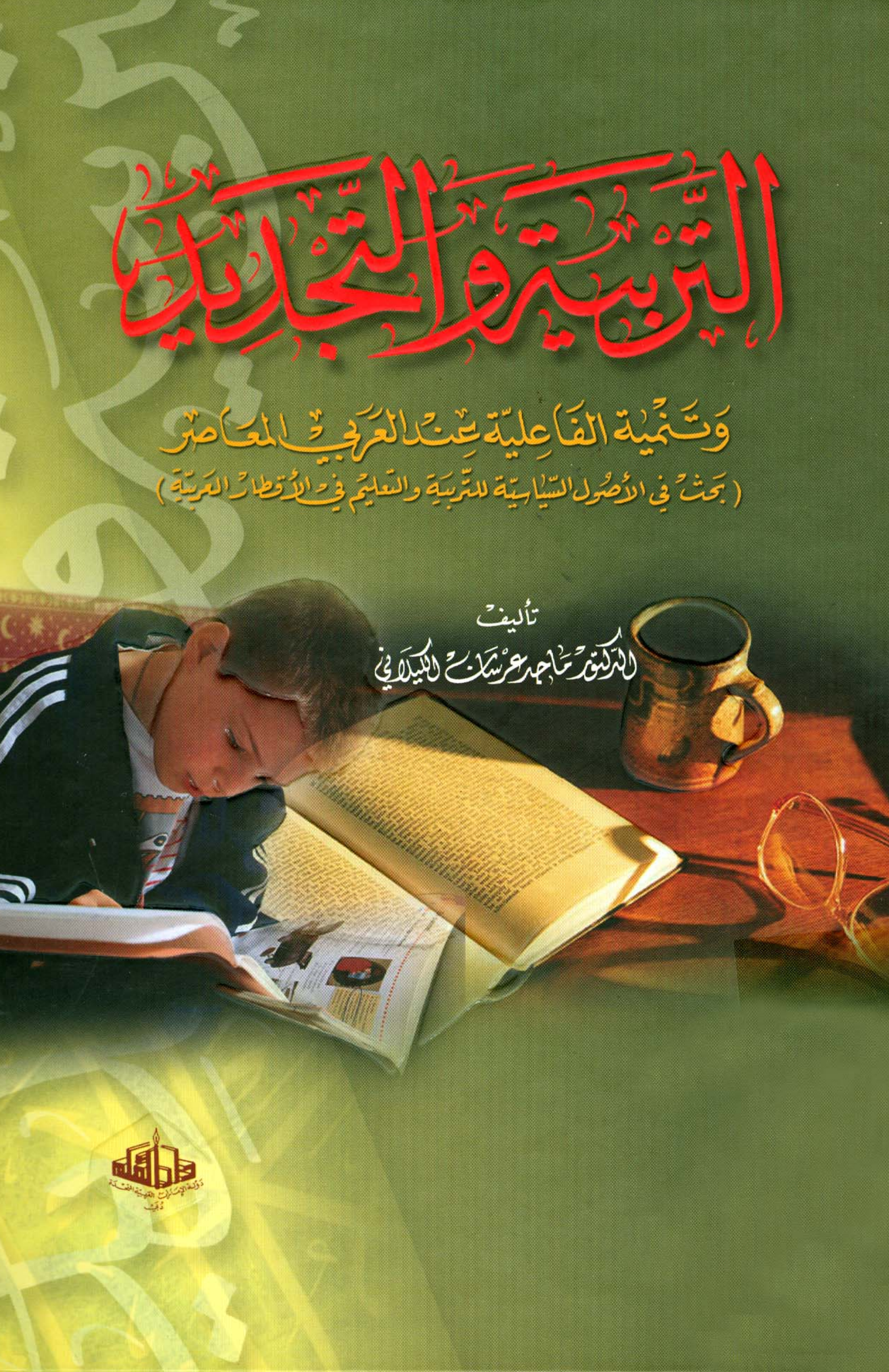

التربية والتجديد
وتنمية الفاعلية عند العربي المعاصر
(بحث في الأصول السياسية للتربية والتعليم في الأقطار العربية)
تأليف
الدكتور ماجد عرسان الكيلاني
دار القلم
دولة الإمارات العربية المتحدة
دبي



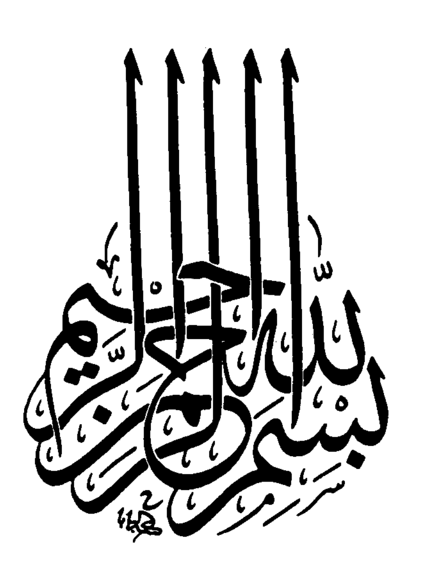
وتنمية الفاعلية عند العربي المعاصر

(بحث في الأصول السياسية للتربية والتعليم في الأقطار العربية)

تأليف

الدكتور ماجد عرسان الكيلاني





الطبعة الأولى
١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م



دار القلم للنشر والتوزيع

دبي - تقاطع الصقر - بناية الفرات
تلفون : ٣٩٣٠٤٣٠ / ٠٠٩٧١٤ / فاكس : ٣٩٣٠٤٠٨ / ٠٠٩٧١٤
ص . ب : ١١٨١٧ / دبي - دولة الإمارات العربية المتحدة



الأمين العـــام

5/1643

2005/3/13

السيد الدكتور/ ماجد عرسان الكيلاني

تحية طيبة وبعد،

أكتب إليكم لأعرب عن خالص الشكر والتقدير على تفضلكم بإرسال نسخة من مؤلفكم "أصول العقل الأمريكي وتطبيقاته الاقتصادية والعسكرية" وكذلك نسخة من كتابكم "التربية والتجديد – وتنمية الفاعلية عند العربي المعاصر".

وأود أن أحييكم على الجهد المبذول في إصدار هذين المؤلفين، وفي الحقيقة فانهما يتعرضان لقضيتين من القضايا التي شغلتنا خلال الفترة الماضية، بل ومازالت تشغل أهل الرأي والخبرة في العالم العربي.

ولقد قمت بإيداع هذين الكتابين مكتبة الجامعة العربية حتى يتيسر للدارسين المعنيين أيضاً أن يطلعوا عليهما.

وتفضلوا بقبول وافر الاحترام

عمرو موسى

الامين العام



المحتويات

مقدمة

مع أن العرب ـ ومثلهم الشعوب الإسلامية الأخرى ـ يمتلكون كل المقدرات التي يمكن أن يصبحوا بها قوة عظمى: فهم يملكون العقيدة التي تشحنهم بطاقات هائلة لا تنفد من حوافز العمل والإبداع، ويمتلكون الثروات الهائلة المتنوعة والمتكاملة، ويمتلكون الموقع الإستراتيجي الهام، ويمتلكون الأعداد البشرية التي تزيد على المليار، ويمتلكون خصوبة التجدد البشري الذي يجعل نسبة الشباب عالية في مجتمعاتهم، إلا أن الفائدة من هذه القدرات قليلة جدًا بحيث يمكن القول إن جل هذه الطاقات والقدرات ضائع مهدور!!

فالعرب ـ أمام تناقض حاد بين قدرات هائلة يمتلكونها وبين عجز هائل عن الاستفادة من هذه القدرات. أي أنهم أمام عطالة ضخمة تضيع على الأمة فرصًا لا حد لها في دينها ودنياها. والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا هذا التناقض الحاد في حياة العرب؟ وأين تبدأ الأزمة؟ ومن أين يبدأ التشخيص؟

يكاد يجمع المختصون بعلوم التربية والاجتماع الإنساني على

أن عجز الأمم عن استثمار مواردها البشرية، ومقدراتها المادية إنما يكمن في القصور الكائن في أجهزة التفكير والإرادة التي تتجسد في ثقافة الأفراد وعلاقة الجماعات المكونة للأمة نفسها. وهو مؤشر لوجود العطل في نظم التربية التي تمد ـ إنسان ـ الأمة بالقيم والاتجاهات، وتزوده بالمعلومات والخبرات وتنمي فيه القدرات والمهارات.

والسبب أن حلقات السلوك الإنساني ـ ومنه الأداء الحضاري ـ تبدأ في النفوس: أي بحلقة الخاطرة ثم حلقة الفكرة، ثم حلقة الإرادة، ثم حلقة التعبير، ثم تبرز منها الحلقة الخامسة: حلقة الممارسة والإنجاز المحسوس. فإذا أصاب الخلل أو ضرب العطب الحلقة الأولى امتدت آثار الخلل إلى الحلقات التالية وأفرزت مضاعفاتها في البطالة والعطالة، والعجز والتخلف. وهذا ما يوجه إليه قوله تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾ (الأنفال:53).

وقوله ﷺ: (**يُرفع العلم ويظهر الجهل والفتن**) [1].

ولذلك كان دعاؤه: (**اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع**) [2].

---

(1) البخاري، الصحيح، كتاب العلم.

(2) ابن ماجة، السنن، كتاب الدعاء رقم 3. ومثله الترمذي والنسائي وأبو داود وأحمد.

والأمم الواعية حين تحس بأزمة معينة أو خلل في الأداء ونقص في الفاعلية والإنجاز، فإن أول شيء تفعله هو قيام الخبراء فيها بتشخيص القيم الثقافية السائدة والنظم التربوية القائمة. وهذا ما فعلته بريطانيا حين رأت التفوق الألماني خلال الحرب العالمية الثانية. ففي الوقت الذي كانت أنظمتها الدفاعية تتصدى للغارات الألمانية في أجوائها وبحارها، كان المربون البريطانيون يجتمعون في مخابئها وملاجئها ويشخصون نظمها التربوية وثقافتها الاجتماعية. ومثله ما فعلته الولايات المتحدة الأمريكية حين رأت الاتحاد السوفيتي يسبقها في النزول على سطح القمر، وهو ما تفعله في الوقت الحاضر وهي ترى التفوق الياباني في الميادين الصناعية والتجارية الدولية [1].

ويذكر - ياسوماسا تومودا - الأستاذ في جامعة أوساكا اليابانية أن أول ما فعلته اليابان إثر هزيمتها في الحرب العالمية الثانية هو مراجعة القيم التقليدية التي كانت تؤكد على الطاعة العامودية في المجتمع: أي طاعة الصغار للكبار، وطاعة الأتباع للقادة؛ الأمر الذي أدى إلى مراجعة نظام التربية اليابانية، خاصة التربية الأخلاقية السياسية - شوشين Shushin وإعطاء العناية اللازمة لقيم الديمقراطية والحرية وعلاقة الحاكم بالمحكوم، والوقوف من موروثات التقاليد والقيم السائدة موقف الناقد العالم، لا التابع المنفعل، والتأكيد على القيادة الجماعية والعمل الجماعي،

(1) James J. Shields, Japanese Schooling: Patterns of Socialization, Equality and Political control. 3rd. ed. The Pennsylvania State University Press, 1993.

وتوسيع مفهوم - الأخلاق - ليشمل ميادين السياسة والإدارة والثقافة والعلم[1].

وحين وجدت كوريا الجنوبية نفسها في مواجهة التحدي الشيوعي عمدت إلى تجفيف البيئة التي تهيئ للشيوعية أن تنتشر وتتوسع. فأعادت النظر في نظام التربية - أولاً - والممارسات الإدارية - ثانيًا - ثم خلصت إلى إشاعة القيم التالية:

1- تبني أيديولوجية خاصة بالبلاد.
2- تنمية الولاء للأمة بدل العصبيات الفرعية.
3- تنمية حب العمل والتطور الاقتصادي.
4- تنمية الروح العسكرية السليمة.
5- تنمية وتطبيق تكافؤ الفرص الاجتماعية.
6- تنمية الديمقراطية وتطبيقها في الحياة السياسية.
7- تنمية روح القيادة الجماعية بدل القيادة الفردية وتطبيقاتها[2].

وكل بلد نجح في الخروج من أزماته ومجابهة تحدياته بدأ بفحص النظم التربوية والثقافة السائدة. وما نجح حزب أو جماعة أو منظمة في برامجها إلا بعد اعتماد مبدأ المراجعة والتقييم الدوري

---

(1) Yasumasa Tomode "Politics and Moral Education in Japan" in the Revival of Values Education in Asia and the west. Edited by William K. Cummings & Others, (Oxford & New York, Pergamon Press, 1988) PP. 75-91.

(2) Sooyeon C. Suh. "Ideologies in Korea's Moral and social texts: A Content Analysis" in The Revival of Values in Asia and the West, PP.93-107.

لمبادئها وأفكارها. وما جمد مذهب أو جماعة إلا بعد إسباغ العصمة على أفكاره وبرامجه.

ويشير البحث الأولي في نظم التربية والثقافة السائدة في الأقطار العربية إلى أنها تُخرج إنسانًا يبقى في أيام السلم سجين ثقافة الصمت والتلقين وتنفيذ الأوامر والعزلة عن الأحداث، والجري وراء الولاءات العصبية والاهتمامات اليومية التي تدور حول الغذاء والكساء وتكديس الأشياء؛ ولكنه حين يفاجأ بالأزمات والتحديات يواجهها بالانفعال وردود الفعل التلقائية، ويشتغل بمعالجة أوراق الأزمة ويغفل عن جذورها الضاربة في النفوس، الممتدة في المفاهيم والمعتقدات، والتقاليد والعادات، والثقافة والعلاقات السائدة. ولذلك تُزمن الأزمات وتتوالى المضاعفات في ميادين الحياة الاجتماعية والسياسية والعسكرية والاقتصادية وغيرها.

لذلك كان البحث في مقومات الشخصية الناضجة القادرة على حمل مسؤولياتها، وفي القيم التي تبعث الفاعلية في الأمة وتؤهلها لحسن استثمار مقدراتها، وتلك التي تحول دون النضج والفاعلية، ضرورة ماسة لتحديد منطلقات الإصلاح وأولويات التجديد. أما الوقوف عند الخبرات التلقائية فهو أمر يقع في - دائرة الأمية الثقافية - التي فرضتها على العرب قسوة البيئة الطبيعية وتصحرها وجفافها، ثم تضافرت الأعراف والتقاليد على تخليدها والمحافظة عليها.

وهذا يعني أن (إحكام) دراسة النفس الإنسانية لاكتشاف

سننها ومعرفة مقوماتها وعاداتها القاتلة لتنمية الأولى وحماية الإنسان من الثانية هو مدار (الفقه التربوي) الذي يجب أن تجتهد المؤسسات التربوية لبلورته ونشره وتفعيله. وهو الشرط الأول لبلورة الأصول التي يجب أن تقوم عليها التربية العربية التي نأمل منها أن تسهم في إخراج الإنسان العربي القادر على الإسهام في مواجهة التحديات وتلبية الحاجات.

ولابد من الانتباه الكامل والحذر الشديد للمحاولات التي تعمل لإجهاض صيحات التجديد الجارية في العالمين العربي والإسلامي. وهذه محاولات فرضتها المرحلة الحاسمة التي وصل إليها الصراع العربي - الإسرائيلي حيث تمت هزيمة الدائرتين: الإقليمية الفلسطينية، والقومية العربية، وأخذت قوى العدوان تتهيأ لمنازلة الدائرة الإسلامية والدخول في مواجهة صريحة مع الإسلام نفسه: إسلام الثوابت والمرجعيات، الإسلام الذي نزل به جبريل عليه السلام على محمد ﷺ، إسلام القرآن الكريم، بغية إلغائه واستبداله بالإسلام الذي يحفظ لإسرائيل دوام التفوق والوجود، إسلام يستمد محتواه من - قرآن أمريكي - يهودي جديد تحت مصطلحات - نشر الديموقراطيات، وصيانة الحريات، التي تقود إلى التشرد والضياع والحيرة، فلا تقوم للأمة قائمة، ولا يتحرك لدفع العدوان جيل.

لابد من وعي كامل مبصر بالتجديد الذي يرضي الله ويصلح الأمة، وتمييزه عن التجديد الزائف الذي يجري تمريره في ميادين

التربية والتعليم والثقافة والإعلام والعلاقات الاجتماعية والتشريعية بمعاونة - المنافقين الجدد في العالمين العربي والإسلامي - . وصدق الله العظيم القائل:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ﴾ (الحشر: 11)

وصدق رسول الله ﷺ القائل: **بتقارب الزمان ينقسم الناس إلى فسطاطين: فسطاط إيمان لا نفاق فيه، وفسطاط نفاق لا إيمان فيه، فإذا كان ذلك فانتظروا الدجال من يومه أو غده** (رواه مسلم).

وهذا ما استهدفت هذه الدراسة الإسهام فيه، وإثارة الاهتمام به، مع التركيز على ما يمكن تسميته - أصول التربية السياسية - في العالم العربي مادام أن الساسة في هذا العالم هم من الأسباب الرئيسية في تفعيل النظم التربوية أو شلها وقتلها في مهدها.

فعسى الله أن يبصرنا بما في أنفسنا، ويهدينا سبلنا، ويجمع على الصواب أمرنا، إنه نعم المولى ونعم النصير.

المؤلف



الباب الأول

معنى الفاعلية وأهميتها

ومعنى التجديد وأهميته



الفاعلية - بشكل عام - تعني العمل على بلوغ أعلى درجات الإنجاز وتحقيق أفضل النتائج[1]. ويوصف القادة بالفاعلية عندما تكون (المخرجات - Output) أو النتائج التي يحصلون عليها أكثر وأحسن من (المدخلات - Input) أي الجهود والتكاليف والموارد البشرية والمادية التي استثمروها، وكلما كانت - المدخلات - أقل من المخرجات - والوقت أقصر، كانت الفاعلية أقوى درجة وأعظم أثرًا[2]. أما تقويم هذه الفاعلية فهو يتم في ضوء الأهداف المحددة للعمل، وفي ضوء مقاييس الفاعلية المتفق عليها. ويفيد هذا التقويم في ثلاثة أمور: الأول، تقديم تغذية راجعة Feed Back تفيد في تقدير ما تم إنجازه بالفعل. والثاني، تقديم القواعد واقتراح الشروط اللازمة لتحديد درجة التفعيل المطلوبة لتحقيق إنجاز أفضل. والثالث، إمداد القيادات بالمعلومات المتعلقة بالخطط المستقبلية ليتخذوا في ضوئها القرارات ويرسموا الإستراتيجيات.

والفاعلية مصطلح فضفاض تختلف معانيه باختلاف الموضوعات والتخصصات. فهي في ميدان السياسة قد تعني النسبة بين (المخرجات) السياسية الحاصلة وبين (المدخلات) المبذولة. وفي ميدان الاقتصاد تشير الفاعلية بشكل عام إلى نسبتين اثنتين: الأولى تتعلق بنجاح المؤسسات الاقتصادية في إنتاج ما يمكن إنتاجه

(1) Robert Albanese, Managing: Toward Accountability for Performance. 3rd ed. (Homewood, Illinois, 1981) P. 16.

(2) Ibid, P. 15.

من المخرجات الحاصلة من مدخلات معينة. والثانية تتعلق بنجاح هذه المؤسسات في تكييف عملياتها طبقاً لأسعار السوق وحاجاته السائدة في ضوء أسعار المدخلات. وفي ميدان العسكرية تشير الفاعلية إلى تحقيق أعلى درجات النصر بأقل التكاليف البشرية والمادية والسياسية [1].

وترد الإشارة في القرآن الكريم إلى ـ المدخلات ـ بأسماء متعددة مثل (الوسع) وذلك عند قوله تعالى: ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَـٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ﴾ (المؤمنون: 62).

ومثله (القوة) و(الرباط) وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ (الأنفال: 60).

أما (المخرجات) فيسميها القرآن الكريم (العاقبة) وهذا اسم يتكرر ذكره في عشرات السور، وغالباً ما يأتي مقروناً بـ (المتقين) أي الذين يتقون الاصطدام بأوامر الله وسننه وقوانينه في الحياة والكون ومسيرة التاريخ والاجتماع الإنساني. وحين تبلغ ـ الفاعلية ـ أقصى درجاتها يطلق القرآن على أصحابها الذين يتصفون بها اسم (المفلحون). و(المفلح هو الذي يظفر بالمطلوب) [2].

كذلك يضع القرآن الكريم لنسبة (المخرجات) المتوقعة من الأمة المسلمة حدين اثنين: حداً أعلى يتحقق إذا أحسنت الأمة

---

(1) Ibid, PP. 75-76.

(2) الرازي، التفسير (سورة البقرة ـ 3)، جـ2، ص34.

استثمار (المدخلات) المبذولة، وحدًا أدنى إذا كان هناك ضعف في الخبرات والمهارات اللازمة لاستثمار (المدخلات) المشار إليها. وإلى الحدين المذكورين يشير قوله تعالى:

﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ (الأنفال: 65-66).

أما عن الوصف القرآني في الآية الأولى للذين كفروا ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾، فلأنهم لا يفقهون أثر الانتفاع بالفاعلية الإيمانية ولا أهمية البصائر التي يقدمها التوجيه القرآني في ميادين استثمار المقدرات وتعبئة الطاقات. وأما التخفيف عن المؤمنين إلى درجة الضِّعف فمعناه أن أداء الإنسان المسلم في أضعف حالاته يجب أن يكون ضعف أداء غير المؤمن في أحسن حالاته، فكيف إذا تدنت هذه الفاعلية عن مستوى غير المؤمنين وأصبحت في قاع سلم الفاعليات بين مجتمعات الأرض قاطبة؟ وتتحقق الفاعلية في الأمة من خلال الإنجازات التي تلبي الحاجات وتواجه التحديات في الداخل، والعطاء الحضاري الذي تقدمه الأمم في الخارج. ولقد اهتمت الأمم الحديثة المتقدمة بتحقيق ـ الفاعلية ـ الإنتاجية في خططها التنموية واستراتيجياتها المستقبلية، وأقامت لها مؤسسات البحث والتدريب. ومن أمثلة ذلك ما قامت به ـ ومازالت تقوم ـ كل

من الولايات المتحدة واليابان وألمانيا لرفع درجة الفاعلية في نشاطاتها الاقتصادية وأدائها الإداري والسياسي على المستويين الداخلي والخارجي.

ففي الولايات المتحدة الأمريكية تعقد المؤتمرات والندوات الشهرية بين ممثلي أربع قوى هي: قوة المعرفة، وقوة المال، وقوة السياسة، وقوة القتال، بغية تحقيق أمور ثلاثة: الأول، التعرف على الوسائل التي تحقق أعلى نسبة من (المخرجات) مقابل أقل نسبة من (المدخلات). والثاني، تقويم مدى التناسق والتعامل بين مؤسسات القوى الثلاث المذكورة. والثالث، تقويم النتائج الحاصلة والتعرف على تفاصيل التغذية الراجعة التي تستفيد منها. ومن أمثلة هذه المؤتمرات المؤتمر الثاني لاجتماعات العلوم الاقتصادية الذي عقد في آذار عام 1990م في جامعة جورج تاون في مدينة واشنطن العاصمة حيث حضر أكثر من "800" ثمانمائة مشترك بينهم متخصصون في علم النفس وعلم الاجتماع والعلوم السياسية، والفلاسفة، وعلماء الاقتصاد، وطلبة إدارة الأعمال، وقدم حوالي "200" مائتي بحث نوقشت في حوالي "50" خمسين جلسة، ثم جمعت خلاصة الأبحاث المشار إليها في مجلد يحمل عنوان: **(الأخلاق والعقلانية والفاعلية)** وكان محور المؤتمر المذكور امتدادًا للمؤتمر الأول الذي عقد في كلية إدارة الأعمال بجامعة هارفارد عام 1989م. ولقد تركز هذا المحور حول مراجعة الأسس التقليدية القديمة للاقتصاد والتي تفصل بين التجارة والأعمال وبين القيم والمسؤولية الأخلاقية، ثم

مناقشة أثر القيم والمسؤولية الأخلاقية في زيادة (فاعلية) إنتاج الشركات الكبرى[1].

ومثلها الدراسات التي جرت حول (الفاعلية) السياسية في ألمانيا بعد الكوارث السياسية والعسكرية التي جلبت الدمار في الحربين العالميتين على أوروبا وألمانيا خاصة، والعالم عامة. من ذلك المؤتمر الذي عقده مركز الدراسات الفيدرالية في ـ جامعة لايستر ـ في الذكرى الأربعين لقيام الاتحاد الفيدرالي في ألمانيا الغربية. ولقد ركز تقرير المؤتمر المذكور على فحص أثر الفيدرالية والديمقراطية في (فاعلية) تطور ألمانيا، وأثبت دورًا إيجابيًا للعاملين المذكورين. إلا أنه أشار إلى وجود ضعف في هذه الفاعلية لأن كلاً من الفيدرالية والديمقراطية جرى فرضهما من قبل الولايات المتحدة وفرنسا اللتين كانتا تخشيان قيام حكومة مركزية تتبنى نفس السياسة التي تبناها ـ الرايخ الألماني الثالث ـ برئاسة هتلر[2].

وحين بدأ التفوق الياباني في ميادين الصناعة والتجارة العالمية تداعت الجامعات ومؤسسات البحث في أمريكا وأوروبا لدراسة (الفاعلية) اليابانية والتفوق الهائل في (المخرجات) التي تحصل عليها اليابان مقارنة بـ (المدخلات) التي تبذلها. وما زالت هذه الدراسات

---

(1) Richard M. Coughlin, Morality, Rationality and Efficiency: New York: M.E. Sharpe, Inc. 1991.

(2) Simon Bulmer, Efficiency, Democracy and West Geman Federalism. (Department of Government, Victoria University of Manchester, UK, 1989).

مستمرة حيث تم استنفار الألوف من خبراء التربية وعلم النفس وعلم الاجتماع، وعلم الإدارة لاكتشاف جوانب الضعف في مناهج التربية الأمريكية، ومظاهر القوة في نظم التربية اليابانية. كذلك خصصت الجامعات في دوائرها العلمية مقررات خاصة لدراسة أسباب فاعلية الأداء الياباني في ميدان التخصص المشار إليه، وأعدت لذلك جميع المتطلبات وأنتجت مئات المجلدات وأقامت الندوات - ومازالت تقيم - بين الهيئات الرسمية والمؤسسات الاقتصادية لتدارس ذلك كله ووضعه موضع التنفيذ. وتشير الأبحاث التي أصدرتها دوائر الدراسات المذكورة إلى أن اليابان تمتلك نظامًا تربويًا يسهم بشكل رئيسي في فاعلية نمو اليابان الاقتصادي وفي تطورها وتقدمها الاجتماعي[1].

أما عن معنى (**التجديد**) وأهميته، فإن التجديد - في هذا البحث - يعني أربعة أمور: الأول: تجديد معاني مفردات القاموس اللغوي الذي تتكون منه المرجعيات العقدية والمصطلحات العلمية وذلك بردها إلى أصالتها ومعانيها الشاملة الواسعة، والثاني: تجديد إنزال النصوص المرجعية والثوابت العقدية التي أسهمت في إقلاع الأمة في ميادين الحضارة في العصور التي مضت، على وقائع العصر الحاضر ومشكلاته بغية استنباط الحلول النظرية والتطبيقية اللازمة لمواجهة التحديات وتلبية الحاجات التي يواجهها

---

(1) Charlie G. Turner, Japanese Dynamic Efficiency in the Global Market, (New York: Quorum books, 1991).

أبناء العصر الجديد. والثالث: تجديد نظام القيم بالقدر الكافي لتنظيم الدائرة الجديدة للعلاقات الإنسانية. والرابع: تجديد أشكال التفكير الملائمة للمعارف والتصورات الحديثة.

والتجديد في الإسلام أصل أصيل وجه إليه الرسول ﷺ عند قوله: **(يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل قرن من يجدد لها أمر دينها)**.

والحديث يشير هنا إلى تجديد (أمر الدين) وليس تجديد (الدين) نفسه. وأمر الدين هو رسالته ومعالجته للأمور الجديدة في ميادين الحياة المختلفة وكيفية التفاعل معها كلها لمواجهة الحاجات والتحديات القائمة في الأمة المسلمة. لذلك يتم (التجديد) في الإسلام من خلال أربعة أمور: الأول: تجديد التعرف على محتويات الألفاظ والمصطلحات القرآنية كما هي في القرآن، والتحرر من الأفهام الخاطئة لهذه الألفاظ خلال فترات الانحراف أو الجمود. والثاني: تجديد إنزال نصوص الكتاب والسنة على الواقع الجديد بغية إفراز الاجتهاد المفضي إلى بلورة حلول نظرية وعملية جديدة لمواجهة التحديات وتلبية الحاجات الجديدة. والثالث: تجديد نظام القيم من خلال إعادة قيمة (العدل) أو القسط الجماعي بدل التركيز على (الأخلاق الفردية) التي تعد المسلم وكأنه ينزل من الرحم إلى محطة القبر دون العبور في محطة الدنيا. والرابع: تجديد مناهج التفكير عند الإنسان العربي بحيث يحل النقد الذاتي بدل التفكير التبريري، والتفكير الشامل بدل الجزئي والتفكير

العلمي بدل الظن والهوى إلى آخر أنواع التفكير المنشود بها [(1)].
وأهمية هذا التجديد أنه يجسد السنة الإلهية التي تقرر أن الله كل يوم هو في شأن، وأن على المسلم أن يعي الشئون الإلهية المتجددة ويعد القيم والمؤسسات والوسائل والأدوات والأساليب الجديدة اللازمة للتعامل معها. وللتجديد ميدانان: ميدان النفوس الفردية، وميدان الحياة الاجتماعية. فالنفوس الفردية مفطورة على التذبذب في النمو عبر درجات فكرية ـ نفسية هي: درجة الاعتماد على الغير، ودرجة الاستقلال عن الغير، ودرجة تبادل التعاون مع الغير. والدرجة الأولى ترمز إلى الطفولة العقلية والنفسية، والدرجة الثانية ترمز إلى المراهقة الفكرية والنفسية، بينما ترمز الدرجة الثالثة إلى النضج الفكري ـ النفسي المميز للرشد الإنساني.

ولكن الإنسان قد يتعرض لمعوقات تعوقه عن الصعود عبر الدرجة الثانية نحو الثالثة أو تتسبب بالهبوط عبر الدرجة الثانية نحو الأولى. ولذلك تقوم الحاجة إلى (تجديد) منميات الصعود وإزالة معوقاته الفكرية والنفسية.

أما عن ميدان الحياة الاجتماعية فالأمة مفطورة كذلك على التأرجح في النمو عبر درجات فكرية ـ إرادية ثلاث هي: درجة الغياب الاجتماعي ودرجة الوعي الساذج، ودرجة الوعي الناضج. والدرجة الأولى ترمز إلى غفلة الأمة عن مصائرها. والدرجة الثانية

---

(1) راجع كتاب ـ أهداف التربية الإسلامية ـ للمؤلف بغية الإطلاع على أنواع التفكير شاملة.

ترمز إلى إحساس الأمة بمشكلاتها الآنية وردود الفعل التلقائية الآنية المنفعلة، بينما ترمز الدرجة الثالثة إلى مرحلة الوعي الناضج والقدرة على المشاركة الجماعية في التخطيط والتنفيذ.

ولكن ـ الأمة ـ قد تبتلى بمعوقات تعيقها عن بلوغ الوعي الناضج أو حتى درجة الوعي الساذج. ولذلك تقوم الحاجة إلى (تجديد) ثقافتها وشبكة العلاقات الاجتماعية فيها، وتزكيتها من (الآصار) الفكرية، و (الأغلال) النفسية لتبلغ مرحلة النضج وتتأهل للمشاركة في مواجهة الجديد من التحديات وتلبية الجديد من الحاجات.

أما عن تفاصيل ميداني التجديد المشار إليهما فهي في الفصول التالية.



الباب الثاني

التربية

وتجديد درجات الشخصية وعاداتها



الأساس الأول الذي تقوم عليه عملية التجديد وتنمية الفاعلية عند الفرد، أن تعي مؤسسات التربية كيفية تحقيق (النضج الكامل في شخصية إنسانها) وأن تتضافر معها مؤسسات الإدارة والأمن والتوجيه لحماية هذا النضج من الإعاقة أو التشويه، لأن هذا النضج شرط أساسي في فاعلية الإنسان وقدرته على تحقيق الإنجازات وحمل المسؤوليات ونجاح المشروعات.

والتربية الواعية تعمل على تنمية نضج الشخصية الإنسانية عبر درجات ثلاث من العادات النفسية ـ الاجتماعية. وهذه الدرجات هي:

- درجة الاعتماد على الغير Dependence.
- ودرجة الاستقلال عن الغير Independence.
- ودرجة تبادل الاعتماد مع الغير Interdependence.

والإنسان يبدأ طفولته من الدرجة الأولى معتمداً على غيره في التغذية والرعاية والإرشاد. وبدون هذا الاعتماد لا يستطيع الاستمرار في الحياة لساعات أو أيام. ثم يبدأ الاستقلال التدريجي إلى أن يبلغ درجة يرعى فيها نفسه ويدير شئون حياته. ولو قُدّر له الاستمرار في النمو فسوف يرتقي إلى درجة ثالثة من النضج الذي ينتهي به إلى أحد مصيرين: إما النضج الجسدي والعقلي والعاطفي الذي يوفر له التعاون مع الغير باستقلال وفاعلية. وإما النضج الناقص حيث ينتهي إلى النضج الجسدي ويبقى طفلاً أو مراهقاً في عقله ومشاعره، أو يصل إلى النضج العقلي والعاطفي ويبقى معتمدًا

على الآخرين في جسده[1]. والعلة في ذلك أنه حين تنمو الشخصية الإنسانية عبر درجاتها الثلاث يرافقها تدرج آخر في عادات الإنسان العقلية والنفسية والاجتماعية والجسدية التي تنتهي إلى أحد مصيرين: فإما عادات (فاعلة) مؤثرة توفر له الخرائط العقلية والنفسية والجسدية التي يستطيع من خلالها حمل مسؤولياته والنجاح في أعماله واستثمار الفرص المتاحة له. أو عادات مكبّلة تصبح (أغلالاً) نفسية تقيده عن مواجهة التحديات، و(أصارًا) اجتماعية تثقله عن القيام بالمسؤوليات، و(غشاوة) عقلية تعميه عن شهود ما ينفعه أو يضره بمستويات تتناسب مع هيمنتها ومضاعفاتها.

فالعادات عناصر قوية في أشخاصنا: ولها جاذبية هائلة في منطقة اللاشعور فينا. وكما أن الجاذبية في الكون الطبيعي يمكن أن تعمل لصالح الإنسان أو ضده، فكذلك جاذبية العادات يمكن أن تعوقنا عن عمل ما نتطلع إليه، أو تساعدنا على تنظيم جهودنا والمضي نحو أهدافنا كما تنظم الجاذبية الطبيعية عمل المجموعة الشمسية والأقمار والنجوم وتحفظها في دورانها المنتظم.

وتبدأ العادة ببذر الفكر، ومن الفكر نحصد العمل، وحين نبذر العمل نحصد العادة، وحين نبذر العادة نحصد الشخصية، وحين نبذر الشخصية نحصد المصير[2].

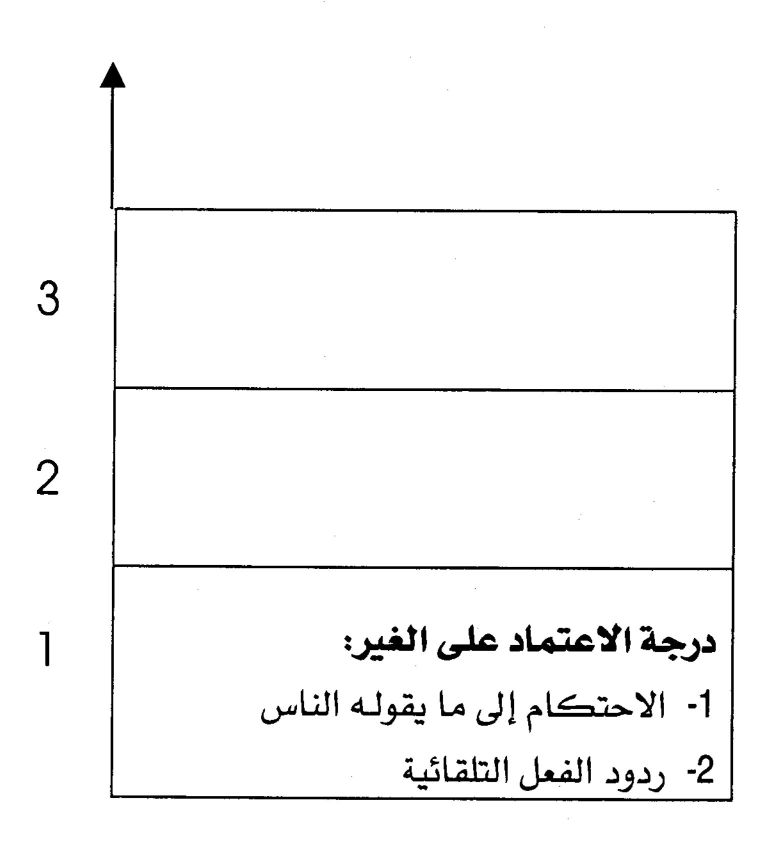
---

(1) Stephen R. Covey, The Habits of Highly Effective People. (New York: Fireside Book, 1990) PP. 48-49.
(2) Ibid, 46.

والتربية الواعية تعي هذا التدرج في نمو العادات ومساراتها ومحطاتها، وتعي الدور الذي تلعبه العادات في حياتنا، فتعد لتنمية العادات الحسنة الفاعلة، ولتغيير السيئة المعوقة. وهذا هو جوهر - التربية النبوية في صدر الإسلام - ومواجهاتها القوية مع عادات العصبيات القبلية الآبائية. أما عن تفاصيل العادات المذكورة فهي:



درجة الاعتماد على الغير وعادتها الفكرية والنفسية



يتمحور وجود (درجة الاعتماد على الغير) حول تصور معين للتأثير والإنجاز. خلاصته (أنت المسئول). أي أن صاحب هذه الدرجة مسلوب الفاعلية ويعتمد على الآخرين للحصول على ما يريده، ويحملهم مسؤولية فشله. وهو يقيم مسلّمات تفكيره على مقولات من أمثال:

- أنت سبب فشلي.
- أنت الملام فيما حدث لي!
- أنت المسؤول عن النتائج.
- أنت لم ترشدني.
- أنت لم تعتنِ بي.

والإنسان الذي يعتمد على غيره جسميًا، كأن يكون مشلولاً أو معوقًا فإنه، يحتاج إلى الآخرين لمساعدته جسديًا. وإذا كان عديم المكانة ويعتمد عليهم عاطفيًا فإنه يستمد إحساسه بقيمة نفسه، واستقراره النفسي من آراء الآخرين فيه، فإن لم يحبوه ويمدحوه ينقلب مخربًا أو حزينًا بائسًا. وإذا كان يعتمد على الآخرين عقليًا فإنه يحتاج إلى من يفكّر له ويعطيه آراءه في شؤون حياته ومشكلاته [1].

والحقيقة أن صاحب (درجة الاعتماد على الغير) إنسان حرم (الوعي بالذات). وهذا الوعي قدرة خاصة تميّز الإنسان عن الحيوان وتمكنه من رؤية ما يفعل. فلو أنك خلال قراءتك لهذا الكتاب وقفت بعيدًا عن نفسك وحاولت أن ترى بعيون عقلك كيف تقرأ وكيف

(1) Ibid, P.49.

يعمل عقلك وتتجاوب مشاعرك، لرأيت نفسك كما لو كنت شخصًا آخر. فنحن لسنا مشاعرنا، ولا انفعالاتنا ولا أفكارنا، لأننا نستطيع أن نفكّر بها كلها بعيدًا عن ذواتنا وعن العالم المحيط بنا.

إن (الوعي بذواتنا) هو أهم منطلقات - الفاعلية - فينا، لأنه يساعدنا على رؤية أنفسنا ورؤية الآخرين، ويساعدنا على تقييم خبراتنا وخبرات الآخرين، وأفعالنا وأفعال الآخرين. وبسبب هذه القدرة نستطيع أن نغير عاداتنا القديمة وأن نطور بدلاً عنها عادات جديدة.

ولكن (رؤية الذات) ورؤية ذوات الآخرين لا يقدر عليها من وقف نموه عند درجة (الاعتماد على الغير). وهي لا تتيسر للإنسان إلا إذا تضافرت - بوعي - كل من مؤسسات التنشئة الاجتماعية، وأهمها الأسرة، والعشيرة، والقبيلة، ومؤسسات التربية كالمدرسة والجامعة، والمسجد، ومؤسسات الإدارة والحكم، لتنمية مهارات الرؤية العقلية ولتوفير البيئة الملائمة لنمو قدرات العقل والإرادة نموًا سليمًا، وأهمها بيئة العدل والحرية واحترام إنسانية الإنسان. أما إذا فشلت هذه المؤسسات في عملها فسيكون من ثمار هذا الفشل في نفس الإنسان تكوّن عادتين سلبيتين:

العادة الأولى: هي العجز عن رؤية الذات.

والعادة الثانية: هي العجز عن المبادرة واعتماد الاستجابات التلقائية في السلوك.

أما عن **العادة الأولى: أي عادة (العجز عن رؤية الذات)** فإن أصحاب هذه العادة لا يرون أنفسهم إلا من خلال رؤية الآخرين لهم، وهو ما نسميه في هذا البحث (المرآة الاجتماعية) أي آراء الناس فيهم وأقاويلهم وتصوراتهم عنهم. وحين تكون (المرآة الاجتماعية) هي المصدر الوحيد لرؤية أنفسنا، فسوف تكون صورة ذواتنا لدينا مثل انعكاسات ـ مرايا الكارنيفال ـ التي تظهر فيها الصورة تارة مصغرة وتارة مكبرة، وتارة مفلطحة، وتارة مكسرة، وتارة تظهر فيها العينان جاحظتان، وتارة صغيرتان مثل الثقوب، وهكذا تكون تصوراتنا عن ذواتنا الفردية والقومية خلال اختلاف المرايا الاجتماعية. فتارة يقال لنا:

- الشرقي بطبيعته كسول يكره العمل والنظام.
- العربي بتكوينه النفسي ضد الوحدة والتعاون.
- الثقافة العربية لغة ثقافة وبيان.
- المسلم يصبر على الظلم بانتظار مخلص من السماء.
- العربي عدواني بتكوينه النفسي.

والكثير يتأثر سلبًا وإيجابًا بهذه المقولات، ومازال الكثير من مفكرينا وكتابنا وخطبائنا ورجال الإعلام والصحافة عندنا يقتبسون مقولات رجال الاستشراق بفرح إن مدحونا وبأسٍ وحزن إن نالوا منا أو من تراثنا [1].

---

(1) انظر: د. محمد أركون، تاريخية الفكر العربي الإسلامي، بيروت: مركز الإنماء القومي 1988. ومثله الدكتور/ جلال العظم. فهما يمثلان هذه الظاهرة خير تمثيل

ومع أن هذه المفاهيم غير مترابطة ومجزأة، وأنها في غالبها إسقاطات نفسية لاتجاهات الذين يتفوهون بها، وهي تعكس مظاهر ضعفهم أكثر مما تعكس حقيقتنا، إلاّ أن عدم نضجنا العقلي واعتمادنا على (المرايا الاجتماعية) ونظائرها من المرايا السياسية والمرايا الاقتصادية تجعلنا نرى ذواتنا من خلال الصور المختلطة المتنافرة التي تعكسها هذه المرايا، وتبعث الاضطراب والتذبذب في أفعالنا وردود الفعل عندنا. وهذه هي حال الأغلبية الساحقة في أقطار العالم الثالث ومنها الأقطار العربية والإسلامية المعاصرة، لأن نظم التربية ونظم القيم في هذه الأقطار هي - أولاً - عامودية العلاقات تفرض على الإنسان أن يسمع دون مناقشة، وينفذ ما يؤمر به دون مساءلة، وهي - ثانيًا - تقيس الصواب والخطأ، والفضيلة والرذيلة طبقًا لمقياس (ماذا سيقول الناس)!! خاصة الناس الذين يقطنون في أمريكا وأوروبا.

والقرآن الكريم يسمى صاحب هذه العادة (مرائيًا) ويندد بالمرائين وينذرهم بفشل الأعمال وسوء المآل وذلك عند أمثال قوله تعالى:

﴿ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾ (النساء:142).

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ (الأنفال:47).

﴿ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ (البقرة:264).

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧ ﴾ (الماعون:6-7).

والرسول ﷺ يندد بأصحاب هذه العادات في عشرات الأحاديث ويحض المؤمنين على ألا يكون أحدهم إمَعة إن أحسن الناس أحسن وإن أساءوا أساء، ولكن عليهم أن يوطنوا أنفسهم للاهتداء بقناعتهم الإيمانية المستقلة، فإن أحسن الناس أحسنوا وإن أساءوا اجتنبوا إساءاتهم.

وأما عن العادة الثانية درجة الاعتماد على الغير فهي ما نسميه . ردود الفعل التلقائية. وهي أن صاحب هذه العادة يفقد القدرة على المبادرة الذاتية وتصبح أفعاله مجرد استجابات تلقائية لا يوجهها تفكير ولا تحكمها إرادة حرة عازمة، والأشخاص الذين يعتادون على ردود الفعل التلقائية يعانون من العجز عن التفكير والاختيار، ويصبحون ضحايا الظروف والممارسات الخارجية ويعجزون عن ضبط انفعالاتهم، ويلومون الآخرين فيما يواجهون من مشكلات، ويعمون عن مسارات الأحداث ومصادر التأثير، ويهرعون إلى الغير طالبين النجدة والمشورة، ويجعلون من أنفسهم صيدًا للطامعين وغنيمة للمستغلين.

وحين تصبح أفعالنا مجرد ردود فعل تلقائية فلأن التنشئة الأسرية القسرية الجاهلة،والتربية التلقينية الخاطئة، ونظم الإدارة السلطوية، ونظم الحكم الظالمة تضافرت وعملت . بالإهمال والتشويه، أو بالقصد والوعي . على تقوية هذه الردود التلقائية وتمكينها من السيطرة علينا. وبهذا الاختيار التلقائي الخاطئ أو

الشرير أصبح سلوكنا مجرد ردود فعل وانعكاسات شرطية خاضعة لأهوائنا وانفعالاتنا. وهذه هي الإشكالية الأولى في شخصية الإنسان المعاصر في أقطار العالم الثالث - ومنها الأقطار العربية - وكل محاولة للإصلاح والتجديد لا تبدأ من تحليل هذه الإشكالية وتضافر الجهود العلمية الواعية لدراستها ومعالجتها فستكون مجرد خبرة فاشلة في سلسلة محاولات الإصلاح التي فشلت من قبل أو تحجرت في الحاضر، لأنها ستكون أيضًا مجرد ردود فعل واستجابات شرطية تحت يافطات الإصلاح والتجديد.

والقرآن الكريم يسمى صاحب - درجة الاعتماد على الغير - (كلاًّ) - بفتح الكاف وتشديد اللام - ويذكر أن من صفات هذا - الكَلّ - أنه يبقى معتمدًا على مولاه، وأنه أينما يوجهه هذا المولى لا يأتي بخير. قال تعالى:

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ (النحل:76).

والرسول ﷺ يسمى هذه الدرجة - عجزًا ويعوذ بالله منها ويقول: "**اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل**"[1].

وتتضافر كل من مؤسسات التنشئة والتربية والحكم والإدارة في العالم الثالث - ومنه الأقطار العربية - لتنمية (درجة

---

(1) البخاري، الصحيح، كتاب الدعوات.

الاعتماد على الغير) وترسيخ عاداتها القاتلة ابتداء من الأم في الأسرة التي تبالغ في حماية الطفل مما يحيط به وتكبله عن المغامرة والتعرف على ما حوله، وتهيئ له مائدته وملبسه وفراشه وتظل مسؤولة عن مواضع قميصه وبنطاله وحذائه منذ طفولته حتى رجولته. والأب الذي يلزمه بكل تقليد ويخوفه من كل جديد، ويحاسبه على كل دخول أو خروج. ومرورًا بالمعلم الذي يحصر الصواب في كل كلمة يلقنها للتلميذ، ويقرأ عنه ويفكر عنه، ويحدد حركاته وسكناته، وبالمناهج التي تنفيه إما في (ماضي الأجداد) الزاهر أو حاضر الغرباء المتقدم، ثم قيادات العمل والإدارة والأحزاب والجماعات ومؤسسات الحكم التي تتصرف بمنطق:

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ ﴾ (غافر:29).

وانتهاء بالشعوب التي تتخلى عن مسؤولياتها ولسان حالها يقول:

﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (المائدة:24).

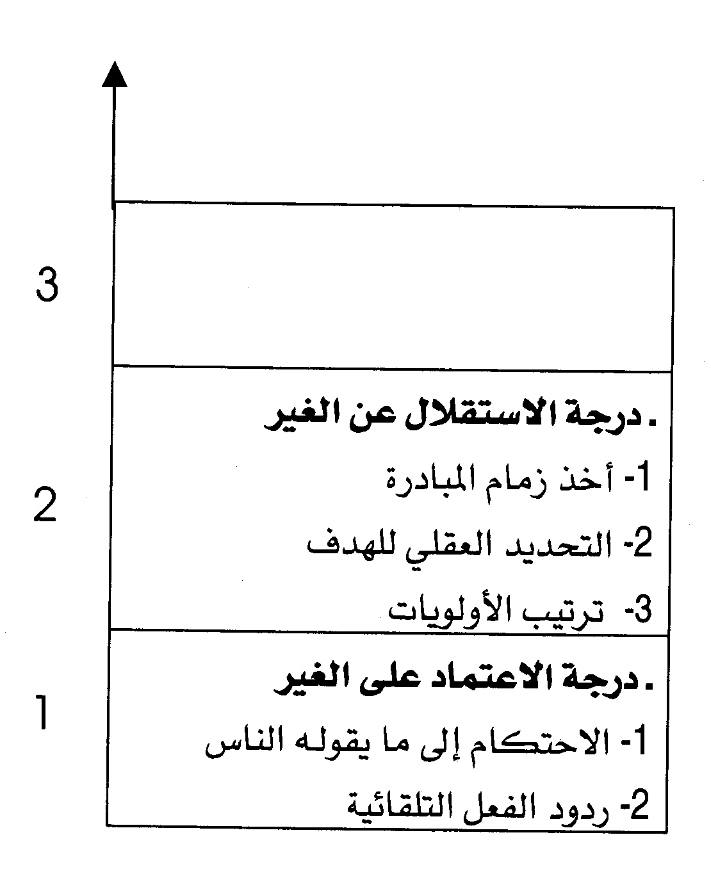
وإذا فوجئت بنتائج عجزها نسبت ما حدث إلى إرادة الله، مع أن الله لا يخلق النتائج إلا إذا قدّم العبد الأسباب.

والمحصلة النهائية لكل هذه الاتجاهات والممارسات هي تفشي "**العجز**" والاعتماد على الغير في جميع ميادين العمل ابتداءً من نظافة المنزل والشارع ومرورًا بأعمال المزرعة والدائرة وانتهاء

بمراكز القيادة والتوجيه، ويكون من مضاعفات ذلك أيضًا انتشار التقليد والاعتماد على الغير في مختلف النشاطات وعلى جميع المستويات، فالشبيبة والرجال والنساء يقلدون الآخرين ويعتمدون عليهم في مأكلهم ومشربهم وركوبهم ومشاهداتهم، وهم يقلدونهم في سلوكهم وأزيائهم وتقاليدهم وعاداتهم وفنونهم وعلاقاتهم. والحكومات والدول تقلد الغير في سياساتها ونظمها وإداراتها ومؤسساتها. والمفكرون والمربون والأدباء والمثقفون والفنانون يعجزون عن دراسة الواقع وتحليله وتنظيره ويعتمدون إما على اجترار تراث الأجداد، أو على استيراد أعمال النظراء في الأقطار الأخرى. والعاملون في ميادين الإصلاح يعتمدون على استيراد أيديولوجيات الآخرين ومناهجهم. ومثلهم الاقتصاديون والرياضيون والعسكريون وهكذا في ميادين الحياة كلها.



درجة الاستقلال على الغير وعاداتها الفكرية والنفسية



يتمحور وجود (درجة الاستقلال عن الغير) حول تصور معين للفاعلية والإنجاز أساسه: (أنا المسؤول). أي أن صاحب هذه الدرجة يتحمل مسؤولياته ويواجه تحدياته، وتقوم تصوراته ومنطلقاته في العمل على مقولات من أمثال:

- أنا أعتمد على نفسي.
- أنا أستطيع أن أختار.
- أنا المسؤول عن الفشل.
- أنا المسؤول عن معالجة الأمر.

والإنسان المستقل عن الآخرين جسديًا ينجز حاجاته ومسؤولياته المادية وحده. وإذا كان مستقلاً عقليًا طوّر قناعاته من داخله ووجّه نفسه بنفسه. وإذا كان مستقلاً عاطفيًا لم يتأثر إحساسه بذاته وقيمته بمعاملة الآخرين أو آرائهم.

ودرجة (الاستقلال عن الغير) أفضل من درجة (الاعتماد على الغير). وفي العادة تمجد الاتجاهات الاجتماعية درجة الاستقلال وتحض عليها لأنها إذا قورنت بدرجة الاعتماد على الغير بانت أفضليتها ما دامت أنها تحرر صاحبها من هيمنة الآخرين وتسلطهم واستغلالهم، وتجنبه جميع الشرور والمآسي الناتجة عن الاعتماد عليهم[1].

(1) Stephen R. Covey. OP. Cit, PP. 49-50.

ويجسد هذه الدرجة في واقع الحياة ثلاث عادات فاعلة تؤدي إلى فاعلية الأداء والإنجاز. وهذه العادات هي:

العادة الأولى: هي القدرة على أخذ زمام المبادرة. فأصحاب هذه العادة يتصفون بصفتين اثنتين: الأولى أنهم حققوا درجة من النضج العقلي الذي يمكنهم من (الوعي بالذات) ورؤية الأفعال الذاتية وتحليلها وتقويمها وتحديد درجة الصواب والخطأ فيها. **والصفة الثانية** لأصحاب القدرة على أخذ زمام المبادرة هي أنهم حققوا درجة عالية من النضج العاطفي. أما عن تفصيل هاتين الصفتين فهو كما يلي: إن تحقيق درجة عالية من النضج العقلي تجعل أصحابه قادرين على تحديد ما يريدون فعله ثم أخذ زمام المبادرة لأداء مسؤولياتهم التي يحملونها. والأصل في الطبيعة الإنسانية أن نحدد أهدافنا ثم نأخذ زمام المبادرة لإنجاز هذه الأهداف، لا أن نترك للآخرين تشكيل أحوالنا وتقرير مصائرنا [1].

والمقصود بالمبادرة أن لا تكون أفعالنا وممارستنا ردود فعل تلقائية واستجابات إشراطية للمثيرات التي تهب من حولنا دون أن يكون لنا أثر فيها - كما هو الحال في أصحاب درجة الاعتماد على الغير - لأن الأصل في تكوين الإنسان وفطرته أنه قادر على مواجهة المثيرات الخارجية واختيار الاستجابة القائمة على معرفته بذاته، وأنه لديه القدرة على تصور أشياء خارجة عن حاضره، وأنه

---

(1) Ibid, PP. 75-79.

لديه الضمير أي المعرفة الداخلية العميقة بالصواب والخطأ، وأنه لديه الإرادة المستقلة أي القدرة على التصرف انطلاقًا من معرفته لذاته متحررًا من المؤثرات الأخرى.

وأما نظريات علم النفس الإشراطي التي تعتبر سلوك الإنسان مجرد استجابات شرطية - تلقائية فهي نظريات استخلصت من التجارب على سلوك الحيوانات خاصة الفئران والقردة والحمام والكلاب والأفراد المرضى نفسيًا والعصبيين. لذلك لا تفسر هذه النظريات السلوك الإنساني لأن المعطيات الأساسية في تكوين الإنسان تجعله فوق عالم الحيوان، ولأنه إلى جانب المثير والاستجابة هناك قوة الإنسان العظمى وهي - حرية الاختيار - ومن حرية الاختيار تتطور أعظم عادة للإنسان ذي الفعالية، وهي عادة - المبادرة المقصودة - Proactively ومعناها أننا كنوع إنساني مسؤولون عن حياتنا، وسلوكنا هو نتيجة قراراتنا الواعية المقصودة وليس انعكاسًا شرطيًا، وأننا نستطيع إخضاع مشاعرنا لقيمنا، وأننا نملك المبادرة والمسؤولية على جعل الأمور في الاتجاه الذي تعمل فيه.

إن الفرق بين القادرين على أخذ زمام المبادرة والعاجزين عن ذلك كالفرق بين النهار والليل. فالفريق الأول يستطيعون تحليل واقعهم واكتشاف "التشويه" الذي لحق بـ (هويتهم) أو الإصلاح الذي يحتاجونه لتأصيل هذه الهوية، ويبتكرون المصطلحات التي تنقل هذا الواقع بصورة دقيقة جدًا، ثم يطورون الأساليب والإجراءات اللازمة لردّ العافية إلى واقعهم وهويتهم، أما الفريق

الثاني فيرون واقعهم وهويتهم كما يريده أعداؤهم أو المتحكمون في مصائرهم. وإنهم ليدافعون ويتقاتلون للدفاع عن الواقع المشوَّه والهوية المشوَّهة، ويستعملون نفس المصطلحات التي لقنهم إياها الأعداء والمتحكمون.

فمثلاً مازالت الغالبية من المثقفين في العالم العربي، ومازالت (المناهج التعليمية ونظم التربية) فيه تدافع عن واقع التجزئة والهوية الإقليمية، ومازالوا يستعملون المصطلحات التي ابتكرتها مراكز البحوث الأجنبية مثل: مصطلح الاستعمار، والشرق الأوسط، مع أن لفظة الاستعمار ـ مثلاً ـ تعني التعمير، بينما واقع السياسات التي مارست الغزو والنهب مع عملية "استدمار" دمرت مصادر الثروة ونهبتها وشوهت البيئة فيها. ومازالت النخب التربوية تمارس انتماءاتها وولاياتها على أساس ـ إقليمي متعصب ـ وأكثر ما يبدو ذلك في أماكن الاغتراب للعمل في أقطار الخليج العربي، حيث يسلك العاملون القادمون للعمل في المؤسسات التعليمية على أساس إقليمي محدود. فهم ـ في المقياس القرآني ـ لم يبلغوا درجة "الآدمية" التي تستطيع تحليل الواقع والظواهر الموجودة فيه وإطلاق الأسماء الصحيحة عليه.

والأشخاص والجماعات القادرون على التفكير المستقل واختيار السلوك المستقل يستطيعون مشاهدة بدائل السلوك المطلوب، ويحسنون اختيار المناسب منها. ويسيطرون على انفعالاتهم ويحسنون ممارسة الأساليب التي يختارونها، ويعتبرون أنفسهم مسؤولين عن

مواجهة التحديات وتحقيق الإنجازات، ويستطيعون شهود مسار الأحداث ومصادر التأثير. وبذلك يتمكنون من تحديد أهدافهم النهائية وتحديد الوسائل والمؤسسات والمؤهلات اللازمة لتحقيقها.

أما الفريق الثاني فيشعرون بالعجز عن التفكير والاختيار، وأنهم ضحايا الظروف والممارسات الخارجية، ويصابون بالهلع وفرط الانفعالات، ويلومون الآخرين فيما يواجهون من تحديات ومشكلات، ويعمون عن مسارات الأحداث ومصادر التأثير ويهرعون إلى الغير طالبين الغوث والمشورة، ويقعون ضحايا الفشل والاستغلال.

والأشخاص القادرون على اختيار استجاباتهم لا يخضعون لقسوة البيئة الطبيعية وإنما يحملون أجواءهم معهم، فسواء أمطر الجو أو أشرق فهم مسيرون بقيمهم ومبادئهم التي اختاروها عن وعي وعلم وإرادة. وإذا كانت قيمهم تشجع العمل وتحترم الإنجاز فليس من وظيفة الجو أن يؤثر في أدائهم وإنجازهم. ومن الإنصاف أن نقول: إن الإنسان المعاصر الذي يعيش في أمريكا وغرب أوروبا الباردة - المثلجة لم يتأثر - ومازال لا يتأثر - وهو يتنقل عبر أصقاع الدنيا كلها بحثًا عن المكتشفات الجغرافية والعلمية، وبحثًا عن مناطق النفوذ والاستعمار. وهو أينما ذهب يسخر الأجواء ولا تسخره، ويكيف حرارتها وبرودتها طبقًا لمبادراته الهادفة المقصودة.

أما الأشخاص الذين يكون سلوكهم مجرد ردود فعل تلقائية فهم في الغالب يتكيفون لمؤثرات البيئة الطبيعية، فإذا تحسن الجو تحسنت أمزجتهم وسلوكهم، وإذا ساء الجو ساءت اتجاهاتهم

وقصرت إنجازاتهم. وحين تكرر هذه الأفعال التلقائية في حياتهم تصبح جزءًا من عاداتهم وثقافاتهم. وهذه حال كثير من شعوب العالم الثالث المعاصر الذين تسخرهم الطبيعة ولا يسخرونها، ويظلون ضحية القحط والحر والكوارث الطبيعية ونقصان المياه السطحية وفيضانات الأنهار والبحار.

والأشخاص القادرون على المبادرة وتحديد الهدف والوسيلة أناس مدفوعون ـ دائمًا ـ بقيمهم ومبادئهم، ولديهم القدرة على إخضاع مشاعرهم لقيمهم هذه بتفكير وروية. صحيح أنهم يتأثرون بالبيئة الاجتماعية والنفسية المحيطة بهم، ويتأثرون بالمثيرات الخارجية، ولكن استجاباتهم لهذه المثيرات تقوم على ما تختاره قيمهم بوعي أو بدون وعي.

أما الأشخاص الذين يتصفون بردود الفعل التلقائية فيتأثرون بـ ـ البيئة الاجتماعية ـ تأثرًا تلقائيًا. فإذا عاملهم الناس معاملة حسنة شعروا بالارتياح والاسترخاء، أما إذا لم يحسن الناس معاملتهم فإن أمزجتهم تسوء وأعصابهم تتوتر ويمضون الوقت في الدفاع عن أنفسهم وتبرير سلوكهم والعمل على حماية أنفسهم مما قيل وقال.

والأشخاص القادرون على المبادرة وتحديد الهدف والوسيلة يتفاعلون مع - البيئة السياسية - تفاعلاً حرًا؛ فهم يدرسون طبيعة المرحلة التي يمرون بها ويحددون لها أهدافها ويختارون عدتها ووسائلها.

أما الأشخاص الذين يتصفون بردود الفعل التلقائية فيتأثرون بـ ـ البيئة السياسية والعسكرية ـ تأثرًا تلقائيًا. فإذا هدأت عواصف السياسة والحروب من حولهم أو على أبواب ديارهم ظنوا أن الدنيا تحولت إلى جنة أمن وسلام فنسوا الإعداد وأهملوا الاستعداد وانصرفوا للشهوات والملذات، وإذا اضطربت التوازنات وتغيرت السياسات فوجئوا بالأخطار تحيط بهم وتغمرهم وسقطوا ضحايا الأطماع والتوسعات، وهرعوا إلى عواصم العالم ومؤسساته الدولية يندبون العدل الضائع ويبكون الحق المهدور. والسلوك الأول هو الذي يميز السياسات الإسرائيلية، والسلوك الثاني هو الذي يحدد ملامح السياسات العربية في الصراع الدائر بين الفريقين منذ حوالي قرن من الزمان. ففي حين درست إسرائيل وخططت ونمت سياسيًّا وعسكريًّا حتى امتلكت السلاح الذري، فإن الدول العربية بقيت حبيسة ارتجالها إلا ما كان من ردود الأفعال وتكرار الصراخ في قاعات ـ الأمم المتحدة ـ وندب العدل الضائع والحق المفقود. ومثله سلوك الجماعات والأحزاب العاملة في كل من إسرائيل والأقطار العربية والإسلامية. ففي حين تعي الأولى الخلافات القائمة في وسائلها والاتفاق الكائن في غاياتها وتترك للزمن التطبيق العملي وللشعب مهمة إظهار أي فريق على صواب، فإن الأحزاب والجماعات العاملة في الأقطار العربية والإسلامية يقرر كل منها مسبقًا أن الصواب المطلق عنده نفسه والخطأ المطلق عند نظائره. وتتصاعد انفعالاتها عند مناطق الاحتكاك وتطلق من ردود الفعل التلقائية الحانقة ما لا تحسب نتائجه ولا تقدر عواقبه.

فالذي يؤذينا ليس ما يحدث لنا، وإنما هي استجاباتنا لما يحدث. ومن الطبيعي أننا قد نؤذى جسديًا أو اقتصاديًا ولكن أشخاصنا وهوياتنا وذواتنا يجب أن لا ينالها الأذى. وهذا ما لاحظه . إلينور روزفلت . حين قال: (لا أحد يستطيع إيذاءنا بدون موافقتنا). ومثله ما قاله . غاندي .: (لا يستطيع البريطانيون أن يسلبونا احترامنا لأنفسنا إذا لم نتنازل لهم عنه) [1].

والحقيقة أن أقسى خبراتنا تصبح الاختبارات الصعبة التي تصوغ شخصياتنا وتنمي قواتنا الداخلية، وتنمي فينا الحرية على التعامل مع الظروف القاسية في المستقبل وتجعلنا قدوة حسنة للآخرين.

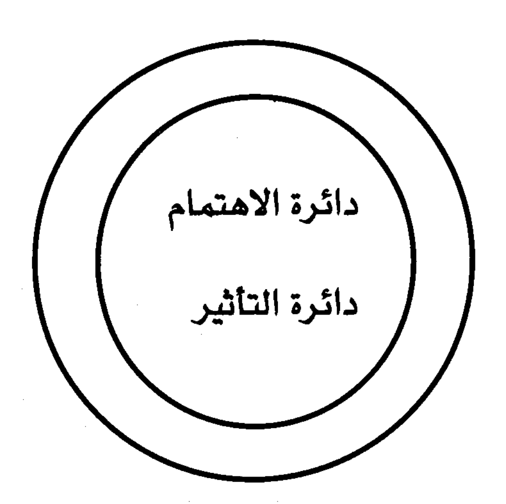
والصفة الثانية لأصحاب القدرة على المبادرة هي أنهم حققوا درجة عالية من النضج العاطفي ولذلك تحررت إرادتهم من الأهواء والانفعالات وصاروا قادرين على اختيار بدائل السلوك المناسب للمواقف وتحديد الأعمال والميادين التي يركزون فيها طاقاتهم وأوقاتهم. وفي العادة يكون لكل إنسان تشكيلة واسعة من الاهتمامات والمشكلات التي يمكن جمعها في دائرة نطلق عليها اسم . دائرة الاهتمامات.. ويمكن أن تمثل لهذه الدائرة بالشكل التالي:

(1) Ibid, PP. 81-83.

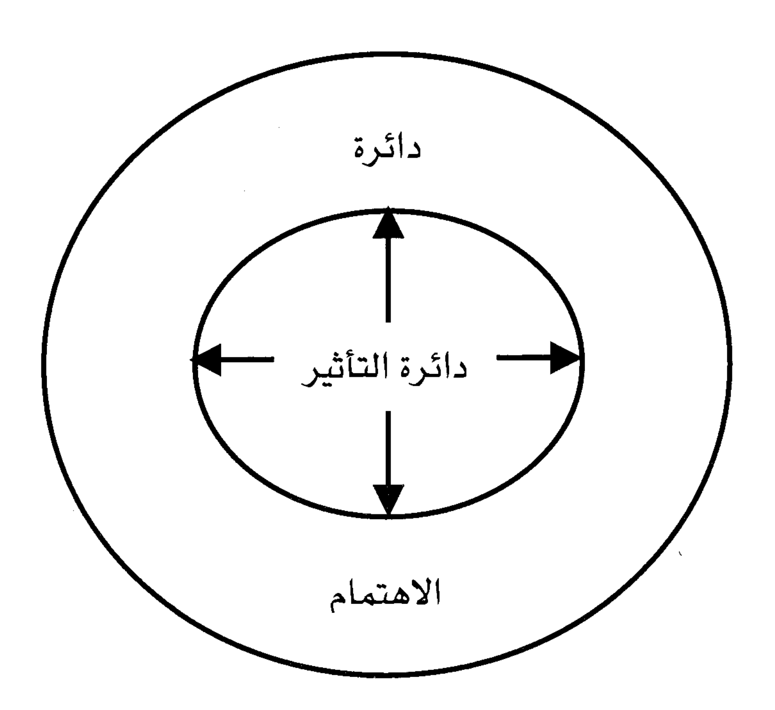


قضايا ومشكلات. خارج دائرة الاهتمامات

كذلك يمكن تقسيم دائرة الاهتمامات إلى دائرتين: (دائرة الاهتمام) بالأشياء التي لا نملك التأثير بها. (ودائرة التأثير) أي دائرة القضايا التي نملك التأثير بها كما يتضح من الشكل التالي:

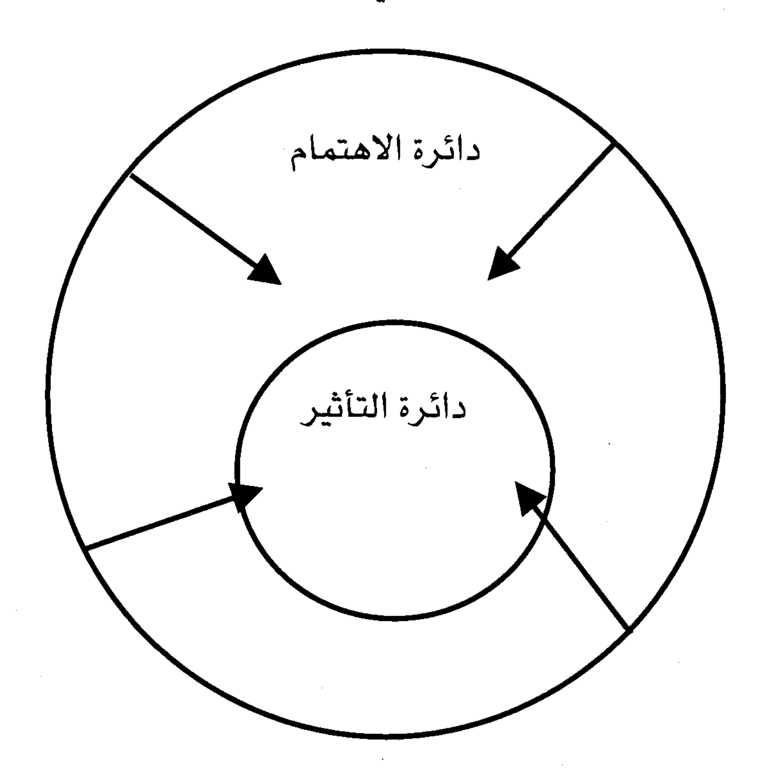


وتتحدد درجة فاعلية الإنسان من خلال التعرف على أي من الدائرتين يركز جهوده ويقضي معظم أوقاته، فالذين يركزون جهودهم في دائرة التأثير هم الذين يتصفون بالفاعلية والحكمة لأنهم يعملون في ميدان يستطيعون إنجاز شيء فيه. فطاقاتهم تصرف في ميدانها وتأثيرهم ملموس، ودائرة التأثير عندهم تنمو وتزداد كما يتضح من الشكل التالي:



أما الذين لا فاعلية لهم ويصدرون عن استجابات سلوكية تلقائية فيهدرون جهودهم في دائرة الاهتمامات التي لا تأثير لهم فيها؛ فإذا فشلوا عوضوا عن فشلهم بتركيز نقدهم على مظاهر الضعف والنقص عند الآخرين، وعلى المشكلات والقضايا التي لا

سلطان لهم عليها، وينتهون من هذا التركيز إلى اتهام الآخرين، وإدانة الاتجاهات الجارية وإلى زيادة الشعور بالاضطهاد والإحباط، وينتهي بهم إهدار الطاقات في غير ميادينها إلى تقلص دائرة التأثير لديهم كما يبدو من الشكل التالي:



والواقع أننا كلما ركزنا جهودنا في دائرة اهتمامنا ـ لا في دائرة تأثيرنا ـ ساعدنا المشكلات التي تقع لأن تسيطر علينا.

وهذا هو طابع تفكير الإنسان الذي تخرجه مؤسسات التربية في الأقطار العربية والإسلامية فالإنسان في هذه المجتمعات يستهلك طاقاته الفكرية والنفسية والمادية في دائرة اهتمامه ويغفل عن دائرة

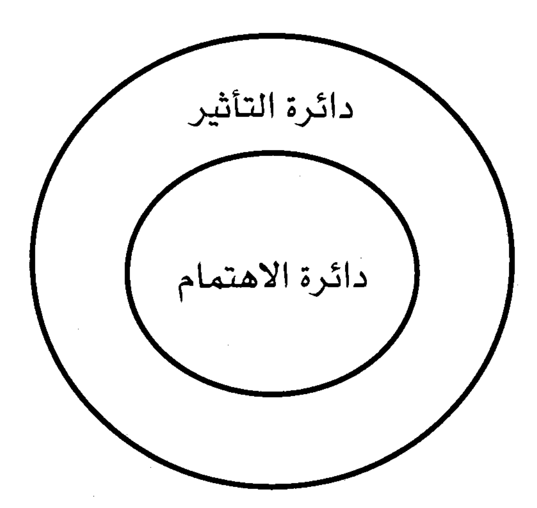
التأثير عنده. وتطبيقات هذا التفكير الخاطئ واضحة جلية في السياسات التي تتبعها الحكومات الرسمية، والنشاطات التي تمارسها الأحزاب والجماعات الوطنية والإسلامية، والحياة التي يعيشها الأفراد العاديون.

فالحكومات تهمل (دائرة التأثير) المتمثلة في إطلاق طاقات الإنسان وتحقيق العدل وتساوي الفرص وبناء الوحدة الوطنية وصيانة جميع الموارد البشرية والفكرية والمادية وحسن استثمارها كلها كمقدمة لبناء الأمة القومية الموحدة القادرة على مواجهة التحديات وتلبية الحاجات، وتقفز بدلاً من ذلك إلى (دائرة الاهتمام) المتمثلة في كسب ود القوى الخارجية والعمل على كسب تأييدها في المحافل الدولية وطلب مساعدتها في شؤون السلم والحرب.

والأحزاب والجماعات تهمل محاربة الأدواء الداخلية كالأمية الفكرية والعصبيات وانتقاص إنسانية الإنسان والاعتداء على حرياته في التملك والاختيار والتفكير والتعبير كخطوة مرحلية للشفاء من قابلية الاستضعاف في الداخل وقابلية الهزيمة والاستعمار الخارجي، ثم تقفز إلى (دائرة الاهتمام) المتمثلة في استنهاض الهمم لضرب مصالح الاستعمار في كل مكان وتمارس ذلك بأساليب غير ناضجة تشوه صورة الأمة في العالم وتساعد الذين يستفيدون من ضعف الأمة ويستثمرون تفسخها لأن يحكموا سيطرتهم عليها وتأليب الدنيا ضدها تحت عناوين مكافحة الإرهاب، والتصدي للأصوليات وما شابه ذلك مما يتسبب في تضييق دائرة التأثير لدى هذه الأحزاب والجماعات.

والفرد العادي القاطن في الأقطار العربية والإسلامية يقضي نهاره وليله في التفكير والجدال في (دائرة الاهتمام) الدائرة حول ضرورة التصدي لقوى الاستعمار والصهيونية ومحاسبة من يواليهما أو يهادنهما من القادة والحكومات ثم ينسى (دائرة التأثير) لديه فيهمل دراسته إن كان موظفاً، ويفرط بحقوق الآخرين إن كان مسؤولاً، ويغش ويحتكر إن كان تاجرًا أو صانعًا. وهكذا في جميع قضايا دائرة تأثيره التي يؤهله إتقان معالجتها للتأثير فيما بعد في القضايا التي تقع في دائرة الاهتمام عنده.

وهناك بعض الظروف التي تكون فيها (دائرة التأثير) للإنسان أكبر من (دائرة اهتمامه) بسبب ما يتوفر له من المكانة والنفوذ والعلاقات الواسعة والثروة كما يبدو من الشكل التالي:



ومثل هذا الوضع يعكس قصر النظر، وقلة التبصر، وانتقاص النفس، والأنانية لأن ذوي الفاعلية لهم دائرة اهتمام

تتساوى على الأقل مع دائرة تأثيرهم، ويتحملون المسئولية لاستعمال تأثيرهم استعمالاً مؤثرًا فاعلاً. وأمثلة ذلك القيادات السياسية والاقتصادية والفكرية والدينية التي تهمل مسئولياتها في قيادة شعوبها وتؤثر الاشتغال بشهواتها وملاذها داخل دوائر عصبياتها الأسرية والقبلية والإقليمية والطائفية. ووجود أمثال هذه العناصر المقصرة مؤشر قاطع على فساد نظم التربية القائمة والثقافة السائدة. ودليل على أن مراجعة هذه النظم التربوية والثقافية يقع في قمة أولويات البرامج الإصلاحية.

والتحدي الذي يواجهنا بالنسبة إلى كل من (دائرة الاهتمام) و(دائرة التأثير) هو الحاجة إلى تحديد مدى سيطرتنا على المشكلات الواقعة داخل الدائرة. وفي العادة تقسم هذه السيطرة إلى ثلاثة أقسام هي:

- **سيطرة مباشرة:** وتتضمن مشكلات تتعلق بأفكارنا واتجاهاتنا وسلوكنا.
- **سيطرة غير مباشرة:** وتشتمل على المشكلات المتعلقة بأفكار الآخرين واتجاهاتهم وممارستهم.
- **لا سيطرة على الإطلاق:** وتتضمن مشكلات لا نستطيع عمل شيء إزاءها.

والأساليب الواعية ـ الناضجة تضع لكل نوع من المشكلات الثلاث حلولاً خاصة به.

فالمشكلات التي لنا عليها السيطرة المباشرة نواجهها من خلال العمل على تغيير عاداتنا وأفكارنا وتصوراتنا وقيمنا لأنها تقع ضمن دائرة نفوذنا، والتطبيقات العملية لهذه المواجهة هو أن نعيد النظر في مناهجنا ومؤسساتنا التربوية ابتداء من التنشئة الأسرية ومرورًا بالتربية المدرسية والجامعية والتربية الحزبية والعسكرية والإدارية والسياسية وأن نفحصها كلها فحصًا شجاعًا مخلصًا حكيمًا، ثم نقوم بالعلاج الذي يقترحه هذا التشخيص فنغير ما يتطلب التغيير ونجدد ما يستدعي التجديد.

أما المشكلات التي لنا عليها سيطرة غير مباشرة فنواجهها من خلال العمل على تغيير طرقنا في التأثير على الآخرين. والآخرون هؤلاء قسمان: قسم يعيش معنا داخل أقطارنا وينتمي لجلدتنا ولكنه يختلف عنا في التفكير والتصور والممارسة. وقسم يعيش خارج أقطارنا ومعتقداتنا وثقافتنا ولنا معه علاقات تتأثر إيجابًا وسلبًا. أما بالنسبة للذين هم من جلدتنا ويشاركوننا العيش في موطننا فعلينا أن نفتح معهم مسالك جديدة للحوار والتفاهم الذي يستهدف الوصول إلى منطلقات مشتركة تضمن لكل إنسان حرية العيش والإقامة والتعبير وتسمح بالتعاون لضمان هذه الحقوق، وبذلك نتجنب الاحتكاك الساخن والفتن المتسببة في هدر الطاقات وفشل الجهود والممارسات. وأما بالنسبة للآخرين الذين يعيشون خارج موطننا وثقافتنا فنعمل على زيادة فهمنا لهم ونقيم مراكز الدراسات التي تعرفنا بأصولهم التاريخية والعقدية والاجتماعية والثقافية، وبمحركات ممارستهم الحاضرة وتوجهاتهم المستقبلية.

ومن خلال هذه المعرفة نطوّر أشكالاً جديدة للخطاب الذي نقدّم فيه أنفسنا إليهم وإلى العالم من حولنا: خطاب يرتقي إلى مستوى التأثير في خزانات الفكر عندهم والقيادات التي تصنع قراراتهم.

وأما المشكلات التي ليس لنا عليها سيطرة فنتعلم التعايش معها دون تشنج أو ردود فعل هوجاء حتى ونحن نكرها، ثم ننتظر الفرصة التي تدخلها ضمن دائرة نفوذنا فنستأنف مواجهتها ونبدأ في معالجتها. وبهذه الطريقة لا نزيد من قوة هذا النوع من المشكلات ولا نعطيها الفرصة لزيادة إحكام السيطرة علينا. ويحدد القرآن لهذا النوع من التعايش مع المشكلات التي لا سيطرة لنا عليها ثلاث استراتيجيات هي: الصبر الجميل، والهجر الجميل، والصفح الجميل، وذلك عند قوله تعالى:

﴿ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرًا جَمِيلاً ﴾ (المعارج:5).

وقوله عز وجل: ﴿ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرًا جَمِيلاً ﴾ (المزمل:10).

وقوله عز وجل: ﴿ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴾ (الحجر:85).

ومن طريف ما كتبه ابن تيمية في تفسير هذه الآيات قوله: (فإن الله أمر نبيه بالهجر الجميل، والصفح الجميل، والصبر الجميل، فالهجر الجميل: هجر بلا أذى. والصفح الجميل: صفح بلا عتاب. والصبر الجميل: صبر بلا شكوى) [1].

(1) ابن تيمية، الفتاوى، علم السلوك، جـ1، ص666.

وثمة أمر مهم يتعلق بالعلاقة بين (دائرة الاهتمام) و (دائرة التأثير). هو أن تربية الإنسان على إحكام التركيز على دائرة التأثير يفرز فاعلية تعمل على توسيع هذه الدائرة واكتساب مساحات جديدة من دائرة الاهتمام لأن الحدود المباشرة على جانبي الدائرتين تجعل التأثير ممكنًا في القضايا الواقعة في دائرة الاهتمام قريبًا من دائرة التأثير. ولتوضيح هذا الأمر نختار مثالاً من الزعيم الهندي غاندي الذي ركّز في مقاومته للاحتلال البريطاني على دائرة التأثير التي يملك كل هندي أن يشارك فيها. فدعا إلى المقاطعة الاقتصادية للاحتلال مبتدأ بعمال مزارع الأرز الذي كان يشكل مادة رئيسية في تجارة المحتلين. أما خصوم غاندي من الهنود فقد بدأوا جهودهم في المقاومة العسكرية أي في (دائرة الاهتمام) التي لم يكن بمقدور الجماهير الهندية المشاركة فيها بسبب اختلال توازن القوى بين الهند وبريطانيا. وكانت النتيجة أن أثبتت طريقة غاندي فاعليتها ووفرت المشاركة لكل هندي وأجبرت الحكومة البريطانية على الاستجابة لمطالبه في التحرر والاستقلال ما دام أن عملية الاستعمار يفوق فيها عامل الخسارة عامل الربح.

والعادة الثانية من عادات درجة الاستقلال عن الغير هي القدرة على الإحساس بحركة سير التاريخ، وتحديد فترات الماضي والحاضر والمستقبل فيه، ثم القدرة على تحديد حاجات وتحديات كل مرحلة، وأهدافها وتطبيقاتها العملية. ويتم إحكام هذه العادة من خلال تربية العاملين على إتقان عدد من التطبيقات هي:

التطبيق الأول: - بلورة تصور واضح - لما نريد أن ننتهي إليه، ليكون هذا التصور معيارًا لكل عمل نقوم به اليوم أو غدًا أو الأسبوع القادم أو الشهر القادم أو السنة القادمة أو العقد القادم. والمحافظة على وضوح الهدف الكلي - النهائي - وضوحًا عقليًّا يساعد العاملين على عدم تناقض أعمالهم اليومية مع المعيار الذي حددوه، ويسهم في تحديد الوسائل اللازمة، ويساعد على فهم البداية والمسار نحو الغاية النهائية. أما إذا لم تحدد الغاية النهائية فمن السهل أن يجد العاملون أنفسهم في مسقط الفشل، وأنهم يصعدون سلمًا أسند إلى جدار خاطئ، وأنهم ينهمكون في أعمال شاقة دون تحقيق أدنى فاعلية.

إن البدء بـ (تحديد الهدف تحديدًا عقليًّا) يقوم على سُنّة كونية هامة وهي أن كل شيء يولد مرتين: ولادة عقلية، وولادة مادية، كمثل الذي يبني بيتًا، فإنه قبل أن يضع أول حجر فيه يحتاج إلى تصور لهذا البيت، ثم يترجم التصور إلى مخطط شامل على الورق، ثم يحول المخطط إلى بناء قائم. وتطبيق هذا المبدأ قائم في ميادين الحياة كلها حيث يبدأ العمل - أولاً - بتحديد التصور النظري ثم تحويل هذا التصور إلى ممارسات عملية مضبوطة بضوابط الهدف العقلي الذي يراد الانتهاء إليه.

ومع أن كل عمل - كما قلنا - يولد مرتين: ولادة عقلية، وولادة حسية، إلا أنه ليس من الضروري أن تكون الولادة الأولى ولادة نافعة للمولود. فنحن إذا لم نخطط لولادة جوانب حياتنا

تخطيطًا واعيًا مدركًا ـ بفتح الراء ـ قائمًا على الوعي بذواتنا، وتحمل مسئولياتنا إزاء الظروف المحيطة بنا والأخطار التي تهدد حاضرنا ومستقبلنا، والتحديات التي تحول دون تحقيق حاجاتنا، فإننا سندع المجال مفتوحًا للآخرين ليقوموا بتخطيط هذه الولادة الأولى طبقًا لمصالحهم وأهدافهم، وسنعطيهم الفرصة واسعة لتشكيل وجودنا وتشويهه، وسوف تكون أفعالنا ـ مجرد ردود فعل عشوائية، وسوف تكون أنماط حياتنا تطبيقات عملية للمخططات التي صممها الآخرون أو شكلتها البيئة لنا، وسنكون عرضة للكوارث الطبيعية والسياسية والاعتماد على الغير في معالجة هذه الكوارث، وما يصاحب ذلك من مضاعفات النقص في الاحترام والتقدير وفقدان الهوية وضياع الانتماء وانتقاص الذات[1]. وهذا هو السبب الذي يجعل الدول المستعمرة ـ بكسر الميم ـ تحرص على التحكم بنظم التربية والتوجيه والإعلام والإدارة في الأقطار المستعمرة ـ بفتح الميم ـ لتكون الولادات العقلية الأولى لمشروعات الأخيرة وممارساتها في ميادين السياسة والاجتماع والاقتصاد والعسكرية منسجمة مع أهداف المستعمرين ـ بكسر الميم ـ ومحققة لأطماعهم ومكرسة لاحتلالهم.

والتطبيق الثاني المحقق للعادة الثانية من عادات درجة الاستقلال عن الغير، هو حسن اختيار العناصر البشرية الصالحة ـ المصلحة ثم تصنيف هذه العناصر إلى فئتين: قيادة ماهرة، وفريق

(1) Stephen R. Covey, OP. Cit, P. 100.

مدرب لأن القيادة الناجحة والتنظيم السليم - والنجاح في اختيار العنصرين أمر في غاية الأهمية لأنه تجسيد لمبدأ: الولادة مرتين، حيث اختيار القيادة هو الولادة الأولى للعمل، وسلامة التنظيم هي الولادة الثانية. واقتران القيادة الفعالة بالتنظيم الفعال يؤدي إلى الفاعلية في الأداء والإنجاز لأن الفاعلية لا تعتمد على مقدار الجهود والطاقات التي تبذل فحسب، وإنما تعتمد أيضًا على بذل الجهود في الميادين الملائمة. لذلك لا بدّ من التمييز الدقيق بين القيادة وبين التنظيم. فالقيادة تعني عمل الأشياء الصحيحة، أما التنظيم فيعني تنفيذ الأشياء الصحيحة، بطرق صحيحة. والقيادة تحديد للجدار الصحيح الذي تستند إليه سلالم العمل، أما التنظيم فهو إتقان صعود هذه السلالم[1].

والتطبيق الثالث هو القدرة على رؤية التكامل بين مكونات العمل بدل التنافر والتصادم بين هذه المكونات. فمثلاً أدركت دول الاتحاد الأوربي الحديث التكامل بين هذه الأقطار، وبنت سياساتها انطلاقًا من هذا التكامل. فقد أسندت لدول الجنوب النشاط السياحي، بينما جعلت في دول الوسط الإنتاج العسكري والصناعي، بينما الدول العربية والمثقفون والمربون العرب مازالوا عاجزين عن رؤية الفروق التضاريسية والثقافية بين شعوبهم وأثر ذلك في بناء التكامل السياسي والعسكري والاقتصادية بينها.

---

(1) Ibid, P. 101.

إن النظر البسيط في تاريخ المنطقة العربية يكتشف أنها تتكون من أربعة تضاريس ثقافية ـ فكرية:

الأولى: منطقة الجزيرة العربية: وهذه مارست دور القيادة السياسية والعسكرية لآلاف السنين ابتداء من المناذرة والغساسنة حتى الوقت الحاضر. وأعطت المنطقة كلها اللغة والدين والأعراف والتقاليد. ونقطة القوة في هذه الثقافة هي قابلية القيادة المشار إليها أعلاه، وتبرز هذه القوة حين تسترشد بتعاليم الدين بشكل صائب ومخلص. أما نقطة الضعف فيها فتبرز حين يضعف التأثير الديني أو يتشوه فهمه، فتحل العصبيات القبلية محل الولاء للأمة المسلمة، وحينئذ تتمحور مسئولية ـ التربية ـ في رد ولاء إنسان الجزيرة من دائرة العصبيات المذكور إلى دائرة الولاء للفكرة الإسلامية وتغذيتها بدوائر الولاء للأسرة والقبيلة والقوم لتتحول إلى صلات أرحام متعاونة على البر والتقوى ضمن إطار الولاء للأمة المسلمة.

والثانية: منطقة بلاد الشام ومصر: وهذه مارست دور ـ البناء الحضاري المادي ـ وما يتعلق به من تشريعات وفقه، ولذلك لم يحكم الشامي أو المصري نفسه آلاف السنين، وإنما كانت قياداته من الخارج، في حين يستثمر علاقاته مع أولئك الحكام لإقامة المؤسسات الحضارية ومنتجاته في التجارة والاقتصاد. ونقطة القوة في هذه الثقافة هي القدرة على بناء الحضارة المادية وشريطة تغذية النشاط الجارية في إطارها بالموجهات الإسلامية. أما نقطة الضعف فهي تحول المنتجات الحضارية إلى معبودات يغير إنسان

المنطقة فيها ثقافته لصالح ثقافة القيادة القوية القائمة كما حدث في حكم أيام اليونان، ثم الرومان، ثم المسلمين، ثم قيادات الشعوب الإسلامية. المتعاقبة حتى الاستعمار الأوربي ـ الأمريكي الحديث.

والثالثة: مناطق الثغور الحضارية المتمثلة في جناحي الوطن العربي في الغرب حيث منطقة شمال أفريقيا، وفي الشرق حيث العراق، وهذه شكّلت أماكن تصدير الحضارة العربية الإسلامية في فترات القوة، وموانئ استيراد الحضارات الأجنبية وتطبيقاتها في اللباس والعادات والأعراف والتقاليد والقيم ومعابر الأخطار والغزوات الخارجية في فترات الضعف تمامًا كما هو الشأن في ثقافة الشام ومصر. وهذه صفات تقتضي من التربية أن تجتهد في تقوية المناعة في "الهوية" و"الانتماء" في المناطق الثلاثة المشار إليها.

والسؤال الذي يطرح نفسه: **ما السبب الرئيسي في انقسام الوطن العربي إلى التضاريس الثقافية المذكورة؟**

الجواب: إن العامل الرئيسي الذي أدى إلى تقسيم الوطن العربي إلى التضاريس الثقافية المشار إليها فيما سبق يكمن في ما نسميه (عبقرية المكان). وتفاصيل ذلك تتجلى في أن الأرض في كل من التضاريس الثلاثة لعبت ـ ومازالت تلعب ـ دورًا تاريخيًا خاصًا يختلف عن سواه. فالجزيرة العربية كانت دائمًا ـ باستثناء عهد البترول ـ قاحلة جرداء، جافة لا يوجد فيها الخصب والخيرات التي تشد الإنسان الساكن فيها إلى تركيز بصره وفكره

وممارساته لاستخراج خيراتها والبناء عليها، ولذلك توجه بها كلها إلى السماء وآفاقها الأمر الذي أهله لحمل الرسالات السماوية وتطوير أدواتها اللغوية وتطبيقاتها في العادات والتقاليد والقيم التي سلكت مقومات القيادة ومتطلبات الرئاسة.

أما أرض الشام مصر فهي أرض مشبعة بالخصب والخيرات المادية ولذلك شدت بصر الإنسان فيها وتفكيره ومهاراته فاشتغل في استخراج كنوزها واستثمار موقعها على مفترق طرق التجارة الأمر الذي أعطاه مؤهلات بناء الحضارات المادية ومكوناتها. ولقد وعى الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه هذه الصفة حين أرسل جيوش الفتح الأربعة إلى بلاد الشام وأوصاهم قائلاً:

"إنكم تقدمون بلاد الشام وهي أرض شبيعة، وإن الله مكنكم حتى تتخذوا فيها مساجد فلا يعلم أنكم إنما تأتونها تلهيا، وإياكم والأشر"[1].

ولئن وعى جيل الفاتحين وصية أبي بكر فإن الأجيال التي تلت تلهت بخيرات الشام وعمرانها الدنيوي حتى فقدت صفات القيادة.

وأما جناحي العالم العربي في المشرق العراقي والمغرب العربي فإن الأرض فيها كانت دائمًا معابر الغزاة في أيام الحرب، وممرات

(1) عبد الله بن المبارك المروزي، كتاب الزهد والرقائق، بيروت: مؤسسة الرسالة، بلا تاريخ، ص141. شبيعة: مشبعة بالخيرات. الأشر: البطر.

التجارة والثقافة في أيام السلم، ولذلك ظل عقل الإنسان فيها مشدود الأعصاب يرقب ما يطل عليه منها، ويُعمل عقله وتفكيره ومهاراته للتعامل مع الوافدين القادمين إيجابًا في أيام القوة، وسلبًا في فترات الضعف.

والخلاصة أن التضاريس الثلاثة تتكامل لينقلب ضعفها في منعة وقوة وحضارة في فترات التكامل، أو تنقلب قوتها ضعفاً ووهناً في فترة التجزئة.

إن عجز ـ نظم التربية ـ في الوطن العربي عن ترسيخ هذا التكامل، وإبراز نقاط القوة والضعف فيه جعل هذه التضاريس في حالة تنافر وصدام، خصوصًا في الفترة القريبة التي عاشتها هذه المناطق واستنزفت مقدراتها في الانقلابات العسكرية أو الفتن الداخلية.

والتطبيق الرابع لعادة تحديد الهدف تحديدًا عقليًا هو أن نبلور ـ برنامج عمل واضح ـ ولصياغة هذا البرنامج نحتاج إلى الانطلاق من أمور ثلاثة:

الأول: مراجعة برامج العمل المستعملة التي انحدرت إلينا من الجيل أو الأجيال التي سبقتنا لمعرفة تلك التي فقدت فاعليتها أو فات زمنها.

الثاني: الانطلاق من القيم والمبادئ التي نؤمن بها.

الثالث: أن نبدأ من مركز (دائرة التأثير) التي مر شرحها، والعمل باستمرار على توسيعها.

ويجب الانتباه إلى أن برنامج العمل يتأثر بمحور ولاء واضعه: وأن محاور الولاء هذه كثيرة ومتعددة؛ فهناك محور الولاء للمبادئ، ومحور الولاء للعائلة، ومحور الولاء للإقليم، ومحور الولاء للوظيفة، ومحور الولاء للممتلكات، ومحور الولاء لعلاقات الصداقة والعداوة، ومحور الولاء لشهوات النفس في المال أو الجاه أو النساء، ومحور الولاء للطائفة الدينية، ومحور الولاء للأنا الفردية. ولا يشترط إلغاء هذه المحاور وتجفيفها لصالح واحد منها، وإنما المطلوب هو الوعي بتكاملها تكاملاً سليمًا واعيًا، بحيث يتمركز محور الولاء للمبادئ في مركز (دائرة التأثير) ثم تدور بقية المحاور في فلكه وتستمد مساراتها منه. وهذا هو محور التربية الإسلامية في تقرير مبدأ الجهاد - أي بذل الجهد - في سبيل الله دون سواه، وحصر الهجرة المقبولة في الهجرة إلى الله، فمن كانت هجرته لله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لامرأة ينكحها أو دنيا يصيبها فهجرته إلى ما هاجر إليه. ومثله تنشئة الإنسان المسلم على أن يبتغي - أن يجعل غايته - فيما أتاه الله من نعم الدار الآخرة وأن لا ينسى نصيبه من متع الدنيا وشهواتها المباحة غير المحرمة.

والعادة الثالثة من عادات **(درجة الاستقلال عن الغير)** هي - **إتقان ترتيب الأولويات في برنامج العمل.**

وتتكامل هذه العادة مع العادتين الأولى والثانية لأنهما تركزان على الولادة العقلية للعمل، بينما تركز العادة الثالثة على الولادة الحسية. أو نقول إن العادتين الأولى والثانية تشكلان

المحتوى النظري للعمل بينما تشكل العادة الثالثة المحتوى التطبيقي. وما لم يتم التوفيق بين ممارسة العادات الثلاث لا يمكن أن يكون العمل فعالاً. وهذا يعني وجوب الجمع بين الثقافة الفكرية والمهارة التطبيقية خاصة عند من يتولون صف القيادة والتنظيم. وهو يعني كذلك خطورة إسناد العمل والقيادة والتنظيم إلى فئات ليس لها فهم راسخ في المبادئ العقدية والعلوم النظرية ذات العلاقة.

والنضوج في هذه العادات الثلاث وبلوغ درجة التفوق على الآخرين نتيجته: (النجاح في الإنجازات الفردية وتحقيق الانتصارات الشخصية).



درجة تبادل الاعتماد مع الغير وعادتها الفكرية والنفسية(النضج)

3	**. درجة تبادل الاعتماد مع الغير** 1- أستفيد ويستفيد الآخرون 2- افهم الآخرين ثم دعهم يفهمونك 3- التعاون الجماعي
2	**. درجة الاستقلال عن التغير** 1- أخذ زمام المبادرة 2- التحديد العقلي للهدف 3- ترتيب الأولويات
1	**. درجة الاعتماد على الغير** 1- الاحتكام إلى ما يقوله الناس 2- ردود الفعل التلقائية

تمثل درجة **(تبادل الاعتماد مع الغير)** أعلى درجات نمو الشخصية ونضجها. والعادات النفسية المرافقة لهذه الدرجة هي عادات القيادة الفعالة ـ الناجحة التي تدور حول تصور معين لفاعلية الإنجاز محوره (نحن المسؤولون) . أي أن صاحب هذه الدرجة لا يفكر وحده ولا يعمل وحده، وإنما يفكر مع الآخرين ويعمل لتحقيق أفضل النجاحات وأعظم الإنجازات. وتقوم تصوراته على مقولات خاصة من أمثال:

- نحن نستطيع عمل كذا.
- نحن نستطيع التعاون لإنجاز كذا.
- نحن نستطيع حشد عقولنا وحواسنا وقدراتنا ومصادرنا لإنجاز أعظم الأشياء.
- نحن المسئولون عن عمل كذا.

و **(درجة تبادل الاعتماد مع الغير)** أفضل من درجة **(الاستقلال عن الغير)** لأن الثانية لا تمثل النضج الكافي للشخصية الإنسانية، ولأن الأفراد المستقلين قد يكونون منتجين ممتازين إلا أنهم لا يصلحون للقيادة أو العمل مع الجماعة أو الأسرة أو الدائرة أو المؤسسة أو الحزب أو الدولة لأنهم يدورون حول أنفسهم ويكون مثلهم مثل من يلعب كرة طاولة التنس مع فريق كرة القدم، وهنا تبدو لنا الحكمة في أن العبادات الإسلامية في طابعها ـ عبادات جماعية لا أفراد ـ خاصة قراءة فاتحة الصلاة التي يتلو المصلي فيها:

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الفاتحة :5-6).

ولا يقول: إياك أعبد وإياك أستعين، اهدني الصراط المستقيم.

والإنسان الذي يتبادل الاعتماد مع الغير ـ ماديًّا ـ هو إنسان جدير بالاعتماد على نفسه وقدراته ومهاراته الجسدية، ولكنه يوقن بأن العمل مع الآخرين يحقق إنجازًا أكبر مما ينجز وحده.

والإنسان الذي يبلغ هذه الدرجة ـ عاطفيًّا ـ هو شخص يعرف قيمة نفسه ولكنه يوقن بأنه يحتاج إلى محبة الآخرين وإلى تبادل المحبة معهم. والإنسان الذي يبلغ هذه الدرجة ـ عقليًا ـ هو إنسان قادر على التفكير المستقل لكنه يوقن بأهمية تضافر قدراته العقلية مع نظائرها عند الآخرين. والإنسان الذي يبلغ هذه الدرجة ـ اجتماعيًّا ـ هو إنسان قادر على اختيار ما يريد لكنه يؤمن بأهمية اعتبار إرادات الآخرين. ولا يستطيع بلوغ هذه الدرجة إلا من بلغ درجة (الاستقلال عن الغير) ثم تجاوزها إلى درجة (تبادل الاعتماد مع الآخرين). أما من هم في درجة (الاعتماد على الغير) فلا يستطيعون بلوغها لأنهم لا يملكون أنفسهم وليس لديهم الشخصيات القادرة على ممارسة هذا الاختيار.

ويصاحب درجة (تبادل الاعتماد مع الغير) عدد من العادات النفسية ـ الفكرية الإيجابية المؤدية إلى إثراء الأداء والإنجاز. وهذه العادات هي:

العادة الأولى: عادة تفكير: (أحب للآخرين ما أحب لنفسي) وهذه العادة هي اتجاه نفسي ـ عقلي، ويكون من نتائج هذا الاتجاه التزام الجميع بالتعاون من أجل صالح الجميع دون الشعور بالتنافس أو الرغبة بالتفوق على حساب الآخرين. والتربية الإسلامية تجعل التحلي بهذا اللون من التفكير بعض شعب الإيمان الصادق، وهو ما يوجه إليه عدد كبير من الأحاديث النبوية وتطبيقاتها في المجتمع النبوي من أمثال قوله ﷺ:

"لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"[1].

والواقع أن عادة تفكير (أحب للآخرين ما أحب لنفسي) هي العادة المناسبة للقيادة الناجحة لأنها تستعمل جميع المواهب الإنسانية كمعرفة النفس والإرادة المستقلة والإدراك وتصور المستقبل، وفيها القدرة على التعلم المتبادل، والتأثير المتبادل، والنفع المتبادل. ويحتاج الإنسان إلى قدر كبير من الشجاعة والثقة بالنفس لإتقان هذا النوع من التفكير وجني فوائده الخاصة إذا كان يتعامل مع أناس من ذوي تفكير (أحب للآخرين ما أحب لنفسي).

وتفكير (أحب للآخرين ما أحب لنفسي) عنصر أساسي في فاعلية الإنسان لأنه يحتوي على خمسة أبعاد متداخلة من نشاطات

---

(1) البخاري، الصحيح، كتاب الإيمان. ومثله عند الترمذي في كتاب القيامة، وعند النسائي وابن ماجه والدارمي وأحمد.

الحياة الناجحة. وتبدأ هذه الأبعاد بـ (الشخصية الناضجة) ثم تتحرك نحو (العلاقات الإنسانية) ومنها تنساب (القدرة على عقد الاتفاقات) وتحقيق (الإنجازات) شريطة توفير (البيئة الصالحة والنظام الصالح) و(تجانس أساليب التعامل ووسائله) مع الغايات التي يتوجه إليها التفكير المذكور.

أما عن البعد الأول وهو (الشخصية الناضجة) فإنها هي الأساس الذي يقوم عليه تفكير (أحب للآخرين ما أحب لنفسي). ولهذه الشخصية ثلاث مزايا:

المزية الأولى هي ـ الاستقامة ـ ومعناه أن يعيش الإنسان منسجمًا مع قيمه التي يؤمن بها في جميع مواقفه وعلاقاته اليومية.

والمزية الثانية هي ـ النضج ـ وهو يتجسد في الواقع من خلال التوازن بين الشجاعة واعتبار الآخرين. وتتحقق الشجاعة من خلال صراحة الإنسان في التعبير عن أفكاره ومشاعره، بينما يتحقق الاعتبار من خلال الاجتهاد في فهم الآخرين واحترام مشاعرهم.

والتوازن بين الشجاعة والاعتبار هو الذي يؤدي إلى توازن الشخصية. فلو كان الإنسان شجاعًا قليل الاعتبار للآخرين فسوف يفكر بطريقة: أستفيد ويحرم الآخرون، وسوف يعوض النقص في اعتباره للآخرين من قوة مكانته وسلطته وشهاداته وعصبيته ووظيفته وهكذا. أما إذا كان عالي الاعتبار للآخرين قليل الشجاعة فسوف يفكر بطريقة (أحرم ويستفيد الآخرون)، وفي ذلك خسارة له ولمن أوكل المسئولية إليه.

والمزية الثالثة للشخصية الناضجة هي ما يسميه ـ كوفي ـ (عقلية الوفرة) أي أصحاب العقلية التي ترى في الحياة عطاءً وافرًا ومتسعًا لكل إنسان. ولذلك يتصرف صاحب هذه العقلية من إحساس عميق بالثقة والاطمئنان، ويرى أن الناس جميعهم يستطيعون المشاركة في المكانة والاعتبار والمنافع والتخطيط وصناعة القرار، وأن الفرص متاحة لهم جميعًا للعمل والإنجاز والنجاح.

والبعد الثاني لتفكير (أحب للآخرين ما أحب لنفسي) هي (العلاقات الإنسانية) القائمة على الثقة المتبادلة، والثقة هي الرصيد المؤدي إلى دوام هذه العلاقات والمحافظة عليها، وبدون هذه الثقة تسود المجاملات المصطنعة، وتقل المصداقية، وينقص التفاهم ويتوقف الإنجاز.

والبعد الثالث لتفكير (أحب للآخرين ما أحب لنفسي) هو القدرة على عقد الاتفاقات وتحقيق الإنجازات. وهو أيضًا ثمرة العلاقات الإنسانية النبيلة، ويراعى في هذا البعد أمور خمسة هي: تحقيق النتائج المرغوبة، وتوفير التوجيهات التي ترشد إلى تحقيق النتائج، وتوفير الموارد البشرية والمادية اللازمة للإنجاز، وبلورة معايير الإنجاز وتقييم الوقت، والتقييم النهائي للإنجاز.

والبعد الرابع لتفكير (أحب للآخرين ما أحب لنفسي) هو ملائمة البيئة السائدة والنظم القائمة لهذا التفكير واحترامها لنتائجه وثماره.

وأما البعد الخامس فهو تجانس الوسائل والغايات. إذ لا يمكن تحقيق أهداف تفكير (أحب للآخرين ما أحب لنفسي) بوسائل وأساليب أستفيد ويحرم الآخرون [1].

ومن المؤسف أن غالبية الناس الذين تخرجهم المؤسسات التربوية في الأقطار العربية والإسلامية، لا يفكرون طبقاً لعادة تفكير (أحب للآخرين ما أحب لنفسي) وإنما يتوزعون بين نماذج تفكير خمسة هي:

1- أستفيد ويحرم الآخرون.
2- أُحرَم ويستفيد الآخرون.
3- أُحَرم ويحرم الآخرون.
4- أستفيد ولا يهمني الآخرون.
5- يستفيد الآخرون شريطة أن أستفيد أو لا فائدة على الإطلاق.

ومما يساعد على رسوخ هذه العادات الخمس من التفكير أن البيئة العامة، والثقافة السائدة ترعاها وتعززها بالممارسة والتطبيق. أما عن تفاصيل هذه العادات فهي كما يلي:

1- عادة تفكير: (أستفيد ويحرم الآخرون). وهي اتجاه نفسي - عقلي ينطلق من منطلق التنافس والتحاسد، وينظر للحياة كميدان سباق لا يستفيد فيه أحد إلا على حساب حرمان الآخر. وإذا تسلم القيادة من يفكر بهذه العادة فسيكون متسلطاً دكتاتوريًّا لا

---

(1) Stephen R. Covey, OP. Cit, PP. 220-234.

يتعاون مع أحد ولا يأمنه أحد. ومنشأ هذا التفكير يبدأ في الأسرة التي تبني تربيتها على أساس مقارنة الطفل بإخوانه أو بأقرانه، وتقديم المحبة وجوائز التقدير وألوان المدح والذم، والتقبل أو الرفض انطلاقًا من هذه المقارنة. ويعزز هذه العادة من التفكير جماعة الرفاق التي تفرق في صحبتها ومحبتها بين عضو وآخر. كذلك تعزز المدرسة هذا التفكير حين تنظم امتحاناتها على أساس التنافس الفردي الذي يعتمد الدرجات الفردية، **واستعمال أساليب في التعليم لا تقوم على التعاون والعمل الجماعي، وحين تطبق مناهج تقوم على عرض صور المنافسات بين الأسر الحاكمة التي شاهدها التاريخ الإسلامي وما تخلل تلك الفترات من المعارك الكلامية التي قادها شعراء المدح والهجاء وخطباء الفتن. وتستمر العصبيات القبلية والحزبية والطائفية . فيما بعد . في تعزيز هذا التفكير وتنشر تطبيقاته في ميادين الوظائف العامة وما يتخللها من انتخابات بلدية ونيابية، وفي ميادين التجارة والتنافس في جمع الدنيا، وتكديس الأشياء، والتفاخر بالجاه والمكانة الاجتماعية والمؤهلات العلمية والمهنية، وتكون نتيجة ذلك كله قتل الفاعلية وعدم الإنجاز وترتفع حدة هذا التفكير في الحياة السياسية القائمة في الأقطار العربية والإسلامية وتتسبب في كثير من إهدار القدرات وإشعال الفتن والمؤامرات، وتنتهي بالبناء إلى الهدم، وبالمشروعات إلى الإفلاس.**

صحيح أن هناك ميادين في الحياة لابدّ من التنافس فيها، ولكن غالب مجالات هذه الحياة لا تحتاج إلى التنافس المفرق للجماعة، المدمر للتعاون، المسبب للضعف والحرمان والخسارة.

2- عادة تفكير: (أحرم ويستفيد الآخرون)، وهذه العادة من التفكير أسوأ من سابقتها لأن أصحابها فاقدو الثقة بأنفسهم، عديمو الإحساس بذواتهم، يتوقعون الخسارة والفشل في كل عمل، ولذلك يعيشون ضحية التردد والنكوص. ومن السهل أن يفرحوا أو يحنقوا، وأن يؤملوا أو يحبطوا. وهم دائموا البحث عن القبول والرضى عند الناس، ومن السهل أن تبهرهم قوة الآخرين وأن يحجموا عما بدأوه.

وأصحاب هذا التفكير محبوبون من أصحاب تفكير (أستفيد ويحرم الآخرون) لأنهم يجدون فيهم ضحايا قليلة التكليف، ويرضون غرورهم ولا يقاومون عدوانهم.

والمشكلة في أصحاب تفكير (أحرم ويستفيد الآخرون) أن صورة الذات لديهم تتعرض للاهتزاز من آن لآخر مما يجعل علاقاتهم مع الآخرين في تذبذب دائم، ويجعلهم يخفون كثيرًا من مشاعرهم في غالب المواقف ثم ينفجرون فجأة ويفقدون توازنهم وأزمة نفوسهم، ويصابون بالتوتر والأمراض العصبية ومشاعر الإحباط.

وأساس هذا اللون من التفكير يعود إلى أيام الطفولة حين ينشأ الطفل في رعاية والدين يعاملانه بالقسوة والتقريع المتكرر، وانتقاص أعماله ونسبة العجز إليه. وتعزز جماعة الرفاق هذا التفكير من خلال السخرية والهزء وتبادل الإهانة والاستهانة. كذلك تعزز المدرسة ذلك من خلال العقوبات الشديدة والتوبيخ عند العثرة في الامتحانات والقصور في العلامات. وتستمر البيئة العامة - أحيانًا - في تعزيز هذا التفكير من خلال أشكال السخرية والمعايرة والألقاب القبيحة والهزء بالأشكال والأعمال.

وهذا التفكير هو الغالب على قيادات أقطار العالم الثالث التي تذعن للطغيان وترضى بالتبعية في مواقع المسئولية المختلفة.

3- عادة تفكير: (أحرم ويحرم الآخرون). ويظهر هذا النوع من التفكير حين يتعامل اثنان من أصحاب تفكير: أستفيد ويحرم الآخرون ويقوم التفاعل بينهما على العدوان والأنانية ورغبة كل منهما في تدمير الآخر. وتتصاعد هذه الاتجاهات السلبية لتتجمع في تفكير واحد هو الحقد وحب الانتقام مما يفضي إلى القول بـ (عليّ وعلى أعدائي) فتحدث الإساءة أو الجريمة المؤدية إلى خسارة الطرفين.

ومن أصحاب هذا التفكير من تسيطر عليه مشاعر الانتقام ويصبح همه الشاغل هو البحث عن مختلف الوسائل والأساليب المدمرة لعدوه المقابل حتى ولو تسبب بتدمير نفسه معه. وهذا النوع من التفكير هو فلسفة الصراعات الحزبية والانقلابات العسكرية وأنظمة الحكم التي أفرزتها هذه الصراعات والتي جلبت الكوارث على المجتمعات العربية والإسلامية المعاصرة فبعثرت ثرواتها وبددت طاقاتها وتسببت في النزيف البشري المهاجر إلى أقطار الدنيا كلها. وهذا النوع من التفكير هو الذي يوجه العلاقات والنشاطات في البيئات الريفية والأحياء الشعبية في قرى الوطن العربي ومدنه، حيث تنتهي كثير من مشروعات التنمية إلى الإفلاس والخسارة.

4- عادة تفكير: (أستفيد ولا يهمني الآخرون): وأصحاب هذا التفكير يريدون النجاح لأنفسهم دون أن يفكروا بفائدة غيرهم أو حرمانه. وهذا هو التفكير السائد عند القيادات الإدارية وأصحاب

المناصب الوظيفية في الأقطار العربية والإسلامية. وهو السائد عند العامة الذين يفكرون بتأمين أنفسهم تاركين الآخرين يفكرون في تأمين حياتهم كذلك. ويعزز هذا اللون من التفكير كميات هائلة من الأمثال الشعبية السائرة على لسان أمثال جحا وأضرابه.

5- عادة تفكير: (أستفيد ويستفيد الآخرون أو لا فائدة لأحد):

وأصحاب هذا التفكير يشرطون فائدة الآخرين بربحهم هم أنفسهم. فإذا لم يضمنوا لأنفسهم ربحاً أوقفوا العمل وضحوا بالمشروع. وهذا التفكير هو الغالب في المجتمعات العربية والإسلامية على رجال المال والأعمال ومن شابههم. وخطورة أصحاب هذا التفكير أنهم إذا تولوا مراكز القيادة استغلوا نفوذهم وسخروا كل شيء لخدمة مصالحهم.

وشيوع أنماط التفكير الخمسة ـ التي استعرضناها ـ في المجتمعات العربية والإسلامية أمر له خطورته التي تصعب على التقدير، لأنه يتسبب في إشاعة ما يسميه ـ كوفي [1] ـ (عقلية الجدب) التي ترى في الحياة رغيف خبز إذا أصاب أحد منه لقمة ضرب النقص حصة صاحبها. وأصحاب هذا التفكير يعتبرون نجاح الآخرين خسارة لهم ولو كان الناجحون من أسرهم أو أصدقائهم المقربين. وهم يرون استقرارهم وسلامتهم في هدم أمن الآخرين وسلامتهم. وهم عاجزون عن التعامل مع الأكفاء القادرين على الأداء والإنجاز. ولذلك ـ إذا كانوا في مراكز القيادة ـ يحيطون

---

(1) كوفي Covey هو مدير مركز كوفي لتنمية القوى البشرية بولاية يوتا في الولايات المتحدة الأمريكية.

أنفسهم بالعجزة والضعفاء الذين يتملقونهم ولا يشكلون خطرًا عليهم، ويقولون (نعم) في جميع مواقفهم. وهم قلقون غير سعداء، مشغولون دائمًا بمقارنة مراكزهم وممتلكاتهم بما لدى غيرهم، ويبذلون قصارى جهودهم في تكديس الأشياء والزخارف والمشروعات المظهرية ليزيدوا من إحساسهم بقيمة ذواتهم. وهذه العقلية هي التي توجه علاقات الدول والأنظمة والهيئات والأفراد في العالم الثالث، لذلك يصعب على أصحاب (عقلية الجدب) هذه التعاون مع غيرهم ويفشلون في تنظيم طاقات العاملين تحت إمرتهم.

والقرآن الكريم يسمى (عقلية الجدب) هذه (الشح). وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (التغابن: 16 والحشر: 9).

ومن تحليل الآيات والأحاديث التي عالجت - الشح - يتضح أنه يتمثل فيما يلي:

أ - الشح - أو البخل - على الآخرين بيسر الحياة وشحن حياتهم بالضنك والعسر. كتضييق الحكومات على الحريات وإثقال كاهل الرعية بالضرائب والغرامات. ومثله استغلال رجال الاقتصاد للأزمات وأوقات الشدائد وظروف القحط والحرب وندرة السلع لممارسة الاحتكار ورفع الأسعار والإيجار.

ب- الشح بإنجاز الواجبات وشيوع العجز.

ج- الشح بالمعاملة الحسنة وشيوع الغلظة والفظاظة في العلاقات الاجتماعية.

د- الشح بالتكافل الاجتماعي وانقطاع التواصل والتراحم وعدم البذل وانتشار الفردية والأنانية مع الإسراف في الإنفاق على ملذات النفس وشهواتها.

هـ- الشح بالمظهر الاجتماعي للعبادة وانحسار التدين في المظهر الشعائري، والتركيز على حركات العبادة دون معانيها، وعلى (الأقوال والأشكال) دون (البذل والأعمال).

و- الشح بالعدل وشيوع التطفيف في المعاملات. والتطفيف مشتق من قوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ ﴾ (المطففين: 1-3)

والتطفيف يشمل جميع ميادين الحياة. فهو في العمل أو الوظيفة يعني إرهاق أصحاب العمل العمال والموظفين بالواجبات والإثقال عليهم بالمسئوليات في الوقت الذي يدفعون لهم أجورًا أو رواتب تقل عن غيرهم، واغتنام كل فرصة (ليُخسِروهم) أي يخصمون من أجورهم أو رواتبهم. أما التطفيف في التجارة فهو المبالغة في استيفاء الثمن عند الشراء وإنقاص الوزن أو المكيال عند البيع، ومثله تطفيف المقاولات والاتفاقات والخدمات وغير ذلك.

ز- الشح بالنفس والقدرات والجبن أمام الأخطار الخارجية مع القسوة على الأخوة أو الرعايا في الداخل.

ولقد بين الرسول ﷺ أخطار الشح فقال:

(إياكم والشح. فإنما هلك من كان قبلكم بالشح: أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالفجور ففجروا) [1]

والعادة الثانية في درجة (تبادل الاعتماد مع الغير) هي عادة: (افهم الآخرين ثم دعهم يفهمونك). والتطبيق العملي لهذه العادة هو مهارة (التواصل والحوار الإيجابي)؛ لأن التواصل أهم مهارة في حياتنا، وفيه نقضي معظم ساعات يقظتنا، ولأن فهم الناس وحسن الاستماع إليهم من أهم مقومات التعامل الناجح معهم.

ولا نعني بحسن الاستماع مجرد الإنصات، وإنما معناه تركيز السمع والبصر والانتباه لسبر غور الآخرين وفهم المعاني التي يريدون إيصالها إلينا، وفهم الدوافع التي تحركهم والأهداف التي يسعون لتحقيقها، وفهم جوانب الصواب ثم الخطأ فيها. فإذا فهمنا ذلك كله منهم انتقلنا إلى الخطوة التالية وهي العمل على جعلهم يفهمون مقاصدنا ويدركون نوايانا. وعلينا أن نعي أن عشرة بالمائة (10٪) من تواصلنا يتمثل في الكلام الذي ننطق به، وأن ثلاثين بالمائة (30٪) يتمثل في نبرات أصواتنا ومدى صدق لهجتنا، وأن ستين بالمائة (60٪) يتمثل بلغة أجسامنا: أي لطافة أو فظاظة حركاتنا وإشاراتنا وتعبير وجوهنا [2].

---

(1) محمد خليل الخطيب، إتحاف الأنام بخطب رسول الإسلام، ص 115 نقلاً عن الحاكم، ومثله سنن أبي داود والمنذري، في الترهيب والترغيب، جـ3، ص 158 لمعرفة المزيد من - الشح - راجع - أهداف التربية الإسلامية - باب إخراج الأمة المسلمة، للمؤلف ماحد عرسان الكيلاني - طبعة دار القلم بدبي.

(2) Stephen R. Covey OP. Cit, PP. 237-255.

ويقدم القرآن الكريم مهارة الاستماع كأحد أسباب الفهم المؤدي إلى الإيمان والنجاة. وذلك عند أمثال قوله تعالى:

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ (الروم:23).

﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ (الزمر:18).

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الأعراف:204).

وفي المقابل فإن فقدان مهارة الاستماع سبب من أسباب الكفر والهلاك.

﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ (فصلت:4)

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ﴾ (الفرقان: 44).

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾ (محمد: 16).

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ۝١٠٠ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ۝١٠١ ﴾ (الكهف: 100-101).

ولقد نهى الله رسوله عن المبالغة في البحث عن الآيات والمعجزات التي تقنع المعرضين الذين لا يحسنون الاستماع المؤدي إلى الهدى وأخبره أنهم في عداد الموتى الذين لن يسمعوا إلا عند البعث والحساب:

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(الأنعام: 35-36)

والإنسان الذي تخرجه مؤسسات التنشئة والتربية والتوجيه في العالم الثالث - ومنه الأقطار العربية والإسلامية - لا يسمع ليفهم، وإنما يسمع ليجيب ما يدور في رأسه. وهو يعتقد دائمًا أن ما في رأسه هو الصواب، وأن الآخرين لا يسمعون هذا الصواب ولا يبحثون عنه. ولذلك يكّون قناعات مسبقة تمليها عليه رغباته الفردية وانتماءاته العصبية، ثم يقضي أوقاته في مجادلة الآخرين لحملهم على رؤية الصواب الذي عنده. وتظل قدراته العقلية مشلولة عن الفهم، مشغولة بترتيب ما سيقول. ولذلك سرعان ما ينقلب الجدال إلى ملاحاة وخصومة، وتعلو الأصوات، وترتجف النبرات، ويجري التركيز على براءة الذات وإدانة الآخرين.

ويتبادل المتجادلون ذلك كله عبر رسائل من الحركات الفظة والإشارات والملامح الغليظة، ونبرات الصوت الجافة. وحين تستشري مضاعفات العجز عن مهارات الاستماع وتصبح جزءًا من الثقافة السائدة فإنها تفرز الدكتاتور الذي لا يسمع إلا نفسه، والمدير البيروقراطي الذي يملي قراراته، والأب السلطوي الذي يلزم أبناءه وبناته بأوامره، والمعلم الذي يفرض مقولاته ويدرب تلاميذه على

ثقافة الصمت، ثم تكون النتيجة العامة هي انهدام جسور التواصل وفشل التربية وعقم الاجتماعات وفشل اللقاءات والمؤتمرات، ثم لا تجد المشاعر الهائجة والانفعالات المائجة أو المكبوتة إلا الكيد والتآمر وامتشاق الأذى وتبادل الأضرار.

والعادة الثالثة في درجة (تبادل الاعتماد مع الغير) هي عادة (التعاون الجماعي).

وهذه العادة هي جوهر مبادئ القيادة الناجحة، لأنها حافزة للهمم، موحدة للجهود، مفجرة لأعظم الطاقات والقدرات. وهي المراد النهائي من ممارسة العادات الخمس التي سبق الحديث عنها. والتعاون المقصود معناه أن تكامل الأفراد وتناسق جهودهم في كل واحدة أعظم فاعلية وأكثر نفعًا من تراكمهما في أكوام بشرية لا ترابط بينها ولا تنسيق. والتعاون بهذا المعنى سنة من سنن الحياة وقانون من قوانين الاجتماع الإنساني. وهو قائم في مكونات الكون المحيط؛ فهو موجود في النظام البيئي وعوالمه المتكاملة Eco-System. وهو موجود بين أفراد كل عالم من العوالم المذكورة. فهو موجود بين أفراد عالم الحيوان الذي تتعاون أجناسه كالنحل والنمل لتوفير غذائها ومساكنها وسلامتها. وهو موجود في عالم النبات الذي تتعاون جذوره المتجاورة لتحسين نوع التربية وتقوية عملية النمو. وهو موجود في عالم الجماد كالأعمدة وأرجل الطاولات التي تحمل - إن تجاورت وتماسكت بالتوصيل والتمازج - أثقالاً أكثر مما تحمل وهي منفردة غير متماسكة.

أما عالم الإنسان الذي أعطي حرية التفكير وحرية الاختيار فإن من مسئوليات مؤسسات التنشئة ـ كالأسرة والقبيلة ـ والمدرسة والجامعة ـ والإدارة والحكم والتوجيه والأمن أن تتضافر كلها للحفاظ على إنسانية الإنسان وإعداده وتنظيم حياته للانسجام مع هذه السنن والقوانين الموجهة للكون كله والحياة كلها، وأن تبصره بمخاطر الاصطدام بهذه السنن وأثره في فشل الأعمال وخسارة الإنجاز.

والأساس الذي تقوم عليه عادة ـ التعاون الجماعي ـ هو الوعي بقيمة الاختلافات والفروق العقلية والنفسية والعاطفية والجسدية بين الأفراد والجماعات، وأن هذه الفروق تجعل الناس أكثر تعاونًا وتماسكًا مما لو تشابهوا. ومن السهل أن نرى شواهد ذلك في الوجود الجسدي لبني الإنسان، ولكنه أكثر غموضًا في العلاقات الاجتماعية والفروق العقلية والعاطفية، فنحن نرى ـ مثلاً ـ أن الاختلاف في التكوين الجسدي بين الرجل والمرأة سبب من أسباب انجذاب كل منهما للآخر وعامل من عوامل المودة، ولو أنهما تشابها في التكوين لتنافرا وما حدث هذا الانجذاب، ولما أثمرت الأسرة ثمارها المعروفة. فالأساس في التعاون ـ إذن ـ أن نعي القيمة العالية والمنافع الكبيرة للاختلافات القائمة بين الأفراد والجماعات، والأجناس والثقافات والتضاريس والأعراق البشرية، وأن تعمل نظم التربية والإدارة على استثمار هذه الاختلافات والفروق لمزيد من تجميل الحياة وإثرائها، ولمزيد من التآلف والتوادد والتواصل وزيادة

الثقة وتبادل التعاون في ميادين الحياة المادية والاجتماعية والسياسية وغيرها. ولعل هذا ما يوجه إليه قوله تعالى:

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ (هود: 118-119).

ومن الموضوعية أن نقول إن الولايات المتحدة الأمريكية قد وعى المسئولون فيها هذه الآثار الإيجابية للتنوع والاختلاف بين السكان، فخططوا لاستثماره فيما يثري الثقافة والحياة الأمريكية، وأقاموا له عيدًا خاصًّا يعرف باسم - اليوم القومي The National Day - ففي هذا اليوم من كل عام تخرج الطوائف والأعراق في كل مدينة لتقيم معرضًا خاصًّا لمنتجاتها وأطعمتها وفنونها وآدابها وثقافاتها الخاصة، ولتتبادل الزيارات والتهاني والمجاملات من أول النهار إلى آخره.

لكن الذين لا يعون قيمة هذه الفروق والاختلافات بين الناس يصنعون منها عوامل تنابذ وتخاصم بدل المودة والتآلف والتعاون، لأنهم يحسبون أن الصواب لديهم وحدهم، والحق مقصور عليهم، والشرف والجمال فيهم دون غيرهم، وأنهم لذلك يستحقون أن يكونوا سادة والآخرون موالي، وأن ينصبوا أنفسهم للآخرين قادة ورعاة: يتصرفون بمصائرهم، ويوجهون أفعالهم، ويحددون مراتبهم دون التشاور معهم أو التعاون، الأمر الذي يبذر بذور الصراع بدل التعاون، والتنابذ بدل الوفاق. وهذا النمط من التفكير هو الذي يوجه العلاقات بين الأفراد

والجماعات والأحزاب والطوائف والحكومات والمدن والأرياف والبوادي في الأقطار العربية والإسلامية، وأشاع الحساسيات العرقية وأقبح أشكال التمييز القبلي والطائفي والعرقي والإقليمي في الوظائف والمراكز ومصادر الكسب، وتصاعدت مضاعفاته في كثير من الأقطار ليصبح ثورات وحروبًا تطالب بالانفصال وتفتيت الكيانات السياسية والاجتماعية. وما المآسي الدائرة في الأقطار العربية والإسلامية إلا أمثلة حية لذلك كله.

وتتحمل التربية مسئولية كبيرة في إشاعة هذا التفكير السلبي من خلال احتضانها للتاريخ الجاهلي وأشعاره وخطبه في الفخر والهجاء، وعدم نقدها ومقارنة آثارها في الواقع الصعب الذي تعاني منه الأقطار العربية والإسلامية.

كذلك تتحمل نظم الإدارة مسئولية مشابهة من خلال التطبيقات العصبية في توزيع المناصب ومقاعد المجالس النيابية.

وتتحمل الثقافة والأعراف والتقاليد السائدة مسؤولية موازية لأنها كلها تتعامل مع الاختلافات والفروق الإنسانية تعاملاً سلبيًا يوجه أمثالها وممارساتها وشبكة العلاقات الاجتماعية فيها.

وسابع عادات (الشخصية الناضجة) وآخرها هي . الصيانة الدورية لمحتويات العادات الست التي سبق الحديث عنها، ومراجعة تطبيقاتها وممارساتها من خلال فحص آثارها في الواقع الذي نعيشه بغية تزكيتها وتجديد طاقاتها ومهاراتها.

وعادة ـ الصيانة ـ هذه تستهدف تجديد أربعة أبعاد في حياتنا هي: تجديد جسدي، وتشتمل تطبيقاته على ممارسة العادات السليمة في العمل والحركة والتمارين الرياضية، والعناية بالتغذية، وتنظيم التوترات النفسية والعقلية. وتجديد عقلي؛ وتشمل تطبيقاته الاستمرار في التعلم وطلب المعرفة النافعة، والقدرة على التصور والتخطيط والكتابة والتأليف. وتجديد روحي وتتضمن تطبيقاته بلورة القيم والمحافظة على أداء الشعائر والعبادات والتزام الفضائل والدراسة والتأمل. وتجديد اجتماعي عاطفي؛ وتتضمن تطبيقاته محبة الناس والتعاطف معهم والإسهام في إشاعة الأمن في حياتهم، إضافة إلى محبة العوالم المحيطة وإيلافها والعمل على فهمها ورؤية قدرة الله ونعمه فيها.

وتفعيل هذه العادة وحسن تطبيقها يتطلب قدرًا كبيرًا من القدرة على التحرر من (آصار) ـ أي أثقال ـ الأعراف والتقاليد الاجتماعية والثقافية التي انتهى مفعولها وذهب زمنها، ومن (أغلال) ـ أي قيود ـ الموروثات في الأفكار والنظم والمؤسسات التي لم تعد تناسب الحاضر.

ومن هنا نتبين الحكمة من الدعوة القرآنية المتكررة إلى (التوبة) وأن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين. ذلك أن التوبة في حقيقتها مراجعة مستمرة وتجديد دوري للقيم الإيمانية وتطبيقاتها وعاداتها، ومواكبة لسنن الله وقوانينه التي تقرر أنه تعالى كل يوم هو في شأن، وأنه لا يتوقف عن خلق الجديد في عوالم الأفكار

والأشخاص والأشياء، الأمر الذي يتطلب من الإنسان تجديدًا مقابلاً في عاداته وقدراته واتجاهاته للتعرف على مظاهر الخلق الجديد وإتقان التعامل معها.

ويقابل ذلك التنديد القرآني المتكرر بالآبائيين الذين يقولون إن وجدنا آباءنا على أمة وإن على آثارهم مقتدون، واعتبار الآبائية السبب الرئيسي في جمود الكافرين والمنافقين على موروثاتهم العقدية وتقاليدهم ومؤسساتهم الفاسدة - الميتة. ولنا أن نتصور كم كانت ستكون الخسارة لو أن معتقدات الجاهلية وأفكارها ونظمها ومؤسساتها الدينية ثبتت أمام نظائرها الإسلامية وتطبيقاتها. ويمكننا أن نتصور حجم هذه الخسارة إذا نظرنا في الآثار السلبية لاستمرار كثير من قيم الجاهلية الاجتماعية والسياسية ومؤسساتها وتطبيقاتها في الحياة المعاصرة في الأقطار العربية والإسلامية.

والنضوج في - العادات السبع - التي تمت مناقشتها في الفصول المتقدمة وبلوغ درجة التفوق على الآخرين في تطبيقاتها؛ ثمرته القدرة على المساهمة في (النجاح في الإنجازات الجماعية وتحقيق الانتصارات القومية).

ولكن من الموضوعية أن نقول إن الأعراف والتقاليد السائدة في المجتمعات العربية والإسلامية المعاصرة تقف حاجزًا صلدًا أمام ممارسة قسم كبير من أشكال هذا التجديد بسبب قيم الآبائية والجمود وإسباغ العصمة على كل قديم، وشيوع التفكير العربي

والأحكام والمقاييس العرفية. نسبة إلى الأعراف والتقاليد. في كل التصورات وشبكة العلاقات.

وتتحمل مؤسسات التربية، ومؤسسات التوجيه والإعلام مسؤولية كبيرة في ذلك كله لأنها تربية تعزز الولاء لكل قديم وتسبغ العصمة عليه وتهمل مهارات التجديد وتغترب في قضايا لا علاقة لها بمسيرة الحياة التي يعيشها الناس في واقعهم ولا بعلاقاتهم بالعوالم المحيطة.



الباب الثالث

التربية

وتجديد الفاعلية عند الأمة



لا تقف ـ التربية الواعية المجددة ـ عند إخراج (الشخصية الناضجة) ذات العادات العقلية والنفسية والجسدية الفاعلة، وإنما تتعداها إلى رسم خرائط الأمة القادرة على تعبئة جهود الأفراد وتنظيمها في شبكة علاقات اجتماعية تيسر عمل المؤسسات التنفيذية كالمؤسسة السياسية والمؤسسة الاقتصادية والمؤسسة العسكرية لتنفيذ المبادئ والاتجاهات التي تقترحها المؤسسة التربوية. ذلك أن الأساس في فاعلية المؤسسات التنفيذية في أي مجتمع هو ـ فاعلية ـ مؤسسة التربية التي تعد العاملين في المؤسسات المذكورة. وحين يتفوق مجتمع على آخر فإن تفوقه في الحقيقة هو تفوق المربين والمؤسسات التربوية على نظائرهما في المجتمع الثاني.

والسبب في ذلك أن تحقيق إنسانية الإنسان هو الشرط الرئيسي الذي تدور في فلكه قوة المجتمعات وقيام الحضارات، وتتحقق إنسانية الإنسان حين تنجح نظم التربية في إقامة علاقات الإنسان مع الآخرين ومع العالم المحيط على أساس من ـ الوعي المتفتح ـ القادر على فهم سنن هذا العالم وقوانينه ومعرفته باعتباره واقع موضوعي مستقل عن الإنسان جدير بالمعرفة. وعندما تقوم علاقات الإنسان بالآخرين وبالعالم المحيط طبقًا لهذه القاعدة يصبح المجتمع (مجتمعًا مفتوحًا). أما عندما يجري تنظيم التربية على أساس انتقاص إنسانية الإنسان أو تدميرها، فإن علاقات الإنسان تنقطع عن العالم المحيط ويتحول المجتمع إلى (مجتمع

مغلق) أشبه بحظيرة الحيوان، ويتصف بصفات مناقضة لصفات (المجتمع المفتوح).

ولكل من المجتمعين صفات واتجاهات تحدد مسارات النشاطات الجارية فيه ودرجة (فاعليتها). أما تفاصيل هذه الصفات فهي كما يلي:

التربية التجديدية وإنجاب المجتمع المفتوح وتربية القولية العقلية والإرادية وإنجاب المجتمع المغلق

1- معنى التربية التجديدية وتربية القولبة العقلية والإرادية:

المقصود بـ"التربية التجديدية" - في هذا البحث - ذلك النظام التربوي الذي يعمل على "تجديد" معلومات المتعلم ومهاراته العقلية والعملية واتجاهاته الإرادية إلى الدرجة التي تمكن هذا الإنسان من إقامة علاقاته مع الآخرين على أساس من "التكامل" والفهم المستقل والوعي المتفتح القادر على ابتكار الوسائل اللازمة لمواجهة تحديات الزمان والمكان والمشاركة في صنع قراراته المتعلقة بحاضره ومستقبله.

ويتم هذا التجديد من خلال تكامل مؤسسات التنشئة وعمادها الأسرة والقبيلة[1]، ومؤسسات التربية والتعليم ابتداءً من المدارس حتى الجامعات ومؤسسات الإدارة والثقافة والحكم وعملها مجتمعةً لتوفير الخبرات والممارسات والبيئات اللازمة لتخريج إنسان يتصف بالمواصفات التجديدية المشار إليها في الفقرة السابقة.

أما "تربية القولبة العقلية والتسخير الإرادي" فهي تعني ذلك النظام التربوي الذي يعمل على صب "فكر منتقى" في قوالب جامدة من التفكير، وتوجيه إرادة الإنسان إلى مرادات تحيل الناس إلى قطعان بشرية سهلة الحشد والتوجيه لما فيه رغبات الأب المتسلط والمدير المتسلط والحاكم المتسلط والنخبة المتسلطة. وتتم هذه القولبة العقلية والإرادية من خلال مؤسسات التنشئة المتسلطة، ومؤسسات التربية والتعليم المتسلطة، ومؤسسات الثقافة ومؤسسات الإرشاد الديني، ومؤسسات الإدارة العاملة تحت أنظمة الحكم المطلق والدكتاتوريات والأحزاب النخبوية التي تعمل على دوران

(1) بعد استقصاء دقيق في الآية الكريمة التي تقول "وكذلك جعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا" (الحجرات: 13) وفي السياسة النبوية، وفي التطبيقات التاريخية، تبين أن الضرورة تقتضي التفريق بين: الانتماء القبلي، والتعصب القبلي. فالأول تراحم يستمد غذاؤه من - الهدي الإلهي - ليصبح - تعاوناً على البر والتقوى - والثاني متبور عن الإرشاد الإلهي فيصبح - تعاوناً على الإثم والعدوان. والقبيلة أكثر فاعلية من الحزب ولها تأثيرها في البيئة العربية. وسوف يتناول المؤلف هذا الموضوع في كتاب مفصل.

الأكثرية في فلك "أشخاص النخبة المتسلطة" في الوقت الذي تقدم هذه النخبة كمعصومين من الخطأ، ومانحين للحياة، وصناع للتاريخ.

2- صفات التربية التجديدية وصفات تربية القولبة العقلية والإرادية:

لكل من التربية التجديدية وتربية القولبة العقلية والإرادية أصوله ومناهجه ووسائله التي تجعل النوعين من التربية يتصفان بصفات خاصة بكل منهما ويكشف عن الفارق الكبير بينهما وأهم هذه الصفات ما يلي:

أ - تقوم التربية التجديدية على أصول تنطلق من ـ فلسفة تربوية ـ أصيلة المعالم، وتحدد العلاقات بين إنسان التربية ـ وبين كل من المنشأ والكون والحياة والإنسان والمصير، وينبثق عن هذه الفلسفة أهداف ومناهج وطرائق ومؤسسات وأدوات تعمل مجتمعة لتجسيد محتويات الفلسفة المذكورة في ممارسات عملية يمارسها الخريج وتتبعها التربية بالقياس والتقويم في ضوء قدرتها على مواجهة التحديات وتلبية الحاجات.

أما تربية القولبة العقلية والإرادية فتقوم على ـ سياسات تعليمية ـ ضبابية تتملق ـ النخبة الحاكمة المتسلطة ـ وتعمل مؤسساتها متفرقة طبقاً لإملاءات القائمين عليها ومدى قدرتهم على توفير الولاء لـ "النخبة المتسلطة". ولذلك يتصادم

عمل هذه المؤسسات وتتنافر ويقوم كل منها بمسح آثار الآخر وتعطيل فاعليته بقصد أو دون قصد.

ب- في التربية التجديدية يتدرب ـ الإنسان على تقويم المنجزات وتحليل الموجودات باستمرار ويبقى في علاقة جدلية مع الواقع والبيئة المحيطة، ويبحث في الطرق والوسائل العلمية اللازمة لمواجهة هذا الواقع وفهمه وتطويره.

أما "تربية القولبة العقلية والإرادية" فتحذر ـ إنسانها ـ من تقويم واقعه وتعتبر كل محاولة في هذا المجال إثارة للفتنة وبثًا للفوضى وهدم النظام وتظل تعمل للتستر على أمراض هذا الواقع وأدوائه حتى تزمن وتستعصي على العلاج.

ج- في التربية التجديدية يتخرج إنسان قادر على الانعتاق من الآبائية والاغتراب وتقوم الممارسات على أسس علمية ـ عقلانية تناقش المشكلات القائمة بشجاعة وإيجابية هدفها التشخيص والمعالجة. ولذلك تتوافر فرص المناقشة والحوار للمتعلمين وتوجههم للبحث في مصادر الخبرات المنهجية وتغرس فيهم القناعة بتنوع هذه الخبرات، ولا تقدمها باعتبارها الصواب الوحيد وتدرب المتعلمين على تحليلها ونقدها والتعرف على النواحي الإيجابية والسلبية فيها مع احترام أصحابها وحين يحدث الاختلاف في مظاهر الفهم فإن لكل طرف الحق في طرح ما يفهمه ثم ينتظر الجميع ليكشف التطبيق العملي الصائب من الخاطئ. وهذا هو منهج

القرآن الكريم في جداله مع المعرضين عن تعاليمه حين طلب منهم انتظار "المآل" - أي يوم تؤؤل تعاليمه النظرية واختراعاتهم المضادة إلى وقائع وأحداث ملموسة فيبين الحق من الباطل كما قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ فَصَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (الأعراف: 52-53).

والتأويل المشار إليه في الآيات معناه - كما ذكر ابن تيمية في فتاويه - المآل: أي الحدوث والصيرورة أو تحول النصوص القرآنية إلى أحداث اجتماعية وكونية.

ولذلك لا مجال في التربية التجديدية لاحتكار الحقيقة والتراشق بالإرهاب الفكري، وتهم الزندقة والانحراف العقدي مادام الشرع يمنح الكافرين به فرصة انتظار الأحداث الكاشفة للحق والباطل، ومادام يعطي المجتهد المصيب أجرين، والمخطئ أجرًا واحدًا.

أما في "تربية القولبة العقلية والإرادية" فيصاب الإنسان بالذعر حينما يتبين أن الواجب يفرض عليه التخلي عن كثير من

المعتقدات والقيم والنظم والتقاليد والممارسات الفكرية والتطبيقات العملية المانعة من التحرر والتقدم ويظل حبيس ما تقرره "النخبة السلطوية" وينحصر الصواب فيما تقدمه هذه النخبة ويسبغ عليه طابع العصمة والاستمرارية، ويحارب كل من يجرؤ على نقده أو إنكاره.

د- في التربية التجديدية يجري التفاعل مع خبرات "ماضي الآباء" و"حاضر الغرباء" في جميع ميادين الخبرات التي يكشف عنها البحث العلمي ابتداءً من التهامها بواسطة مؤسسات البحث ثم هضمها ثم امتصاص النافع وتوطينه وتوزيعه على أجهزة الأمة العاملة فيها، ثم طرح المتبقي الضار وغير النافع إلى نفايات المعرفة، ثم تكون نتيجة ذلك كله فاعلية المؤسسات واتصافها بصفات الأصالة والمعاصرة.

أما في تربية القولبة العقلية والإرادية فيتم الانتقاء من "ماضي الآباء" و"حاضر الغرباء" ما يوافق السياسات التعليمية للنخبة المتسلطة، ثم حقن الأمة مباشرة بهذه الأجزاء التراثية المنتقاة وتركها لتتساب في أوردتها وشرايينها دون هضم أو تحليل أو تمثيل الأمر الذي يقتل فاعلية الإنسان ويصيبه بالاضطراب والإحساس بالدونية والإحباط في الآمال وأزمة في الهوية والانتماء.

هـ- في التربية التجديدية يجري التركيز على تشخيص الواقع وفحص محتوياته النفسية والاجتماعية لتغيير الجهات المتسببة بأمراض العجز والتخلف ورد العافية إليه.

أما في تربية القولبة والطغيان فإن الجهود تبدد في "هجاء" الآخرين الذين يغريهم ضعف الواقع وتجذبهم مضاعفات ثقافة الطغيان والاستضعاف ليحتلوا ويستعمروا ثم تكون عاقبة هذا "الهجاء" شبيهة بمآل قول أعرابي ما قبل الإسلام: "أوسعتهم شتمًا ومضوا بالإبل".

و- في التربية التجديدية يعي العاملون في مؤسساتها الفرق بين (عالم الثقافة) و(عالم الطبيعة). فالثقافة إنجاز إنساني يضيفه الإنسان إلى عالم الطبيعة الذي لم يوجده الإنسان نفسه. أما عالم الطبيعة فهو وجود كوني خلقه الله وكلف الإنسان باكتشاف قوانينه وتسخيرها في صناعة (عالم الثقافة) الذي يرسي دعائمه ويقيم بناءه.

أما في تربية القولبة العقلية فإن الخلط يقع بين العالمين وتضرب السطحية فهم كل منهما.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ما الصلة بين كل من التربية التجديدية وتربية القولبة العقلية والإرادية وبين المجتمع الذي تنجبه كل منهما؟

الجواب: إن بنية أي مجتمع وتنظيماته وسياساته "تتطابق" مع بنية وسياسات وتنظيمات التربية التي تفرز هذا المجتمع. وانطلاقًا من هذا المبدأ يمكن القول: إن التربية التجديدية تنجب مجتمعًا مفتوحًا يهيئ لحسن استثمار المقدرات وتنمية قدرات الأفراد

والجماعات وتعبئتها إلى القدر الكافي لتلبية الحاجات ومواجهة التحديات.

أما تربية القولبة العقلية والإرادية فتنجب مجتمعًا مغلقًا تهدر فيه الطاقات وتعطل فيه القدرات ويعجز الناس عن فهم واقعهم وحمل مسئولياتهم.

ولقد بحث مبدأ التطابق Correspondence Principle هذا عشرات المختصين في كبرى الجامعات الأمريكية خلال عقدي السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين وطبقوه لاكتشاف المقاصد النهائية لسياسات التربية في أمريكا - خاصة سياسة العسكريين والرأسمالية العالمية وسموا أنفسهم - المراجعين - ومن أمثالهم: هربرت جينتز Herbart Ginitis وصمويل باولز Samuel Bowles ومارتن كارنوي Martin Carnoy وجول سبرنج Joel Spring ولورانس كريمن Laurence Cremin. ولقد امتاز هؤلاء المراجعون بمهاراتهم في البحث، وعمق الثقافة، وسعة الاطلاع، والجرأة في النقد والتحليل وبمناوءتهم لسياسات النخب الرأسمالية والعسكرية في أمريكا القائمة على قولبة تفكير المواطن في الداخل واستغلال الإنسان في الخارج. أما صفات كل من (المجتمع المفتوح) الذي تنجبه التربية التجديدية و(المجتمع المغلق) الذي تنجبه تربية القولبة العقلية والإرادية فيمكن تلخيصها فيما يلي:

3- صفات المجتمع المفتوح وصفات المجتمع المغلق:

أ - صفات المجتمع المفتوح:

الصفة الأولى: هي **(هيمنة روح العمل الجماعي)** على نشاطات الحياة الجارية، لأن ردود الفعل التي يبديها الناس لمواجهة التحديات وتلبية الحاجات في بيئتهم المحيطة، لا تكون فاعلة . مؤثرة إلا إذا قامت على تنظيم الجهود واجتماعها وحسن التنسيق بينها واختيار أحسن الوسائل والمؤسسات والنظم والأساليب ثم المضي في استعمالها وتعديلها وتقويمها انطلاقًا من (وعي) الجماعة بمتطلبات المواقف التي يمرون بها.

الصفة الثانية: هي إقامة علاقات الناس بعالمهم على أساس، من (الوعي) الراسخ بواقعهم و(إدراك) المعلومات المتعلقة بهذا الواقع وفهمها. الوعي والإدراك هما اللذان يمكنان الإنسان من إعادة تنظيم خبراته المتوازنة والتصدي لتحديات واقعه لمجابهتها وإعادة تشكيل هذا الواقع والارتقاء به.

الصفة الثالثة: هي إقامة علاقات الإنسان بالعالم المحيط على أساس التكامل معه. والتكامل معناه تبادل التأثر والتأثير. وهو ثمرة الوعي الناقد: أي الوعي القادر على فهم الواقع القائم ونقده وبلورة الأعمال والاستراتيجيات والوسائل اللازمة للتعامل مع التحديات والأخطار والمشكلات. والإنسان بهذه الصفة يختلف عن الحيوان الذي (يتكيف) مع عالمه المحيط ويتأثر به دون أن يؤثر

فيه، ولا يستطيع إقامة علاقات مستقلة معه إلا ما كان من مجرد الاتصال العضوي وردود الفعل الغريزية التلقائية.

الصفة الرابعة: هي إدراك تقسيمات الزمن إلى (ماض، وحاضر، ومستقبل)، وأهمية هذا الإدراك هي أن الإنسان يستطيع تحديد بدايات (الحقب التاريخية) ونهاياتها، ويستطيع تمييز الحقب التي أقام الناس خلالها علاقاتهم مع العالم المحيط باستقلال وفاعلية، فاستجابوا لتحدياته وأثروا في واقعهم وحققوا إنسانيتهم، وأقاموا ثقافاتهم على الرقعة الجغرافية التي يسكنونها.

و **(الحقبة التاريخية)** هي مجموعة طموحات واهتمامات وقيم تبحث عن التحقيق من خلال العمل الإنساني وتكون الاتجاهات والثقافة العامة. وبمقدار ما تحقق هذه الطموحات والاهتمامات والقيم إنسانية الإنسان، بمقدار ما توصف الحقبة الزمنية بالتقدم والرقي: وبمقدار ما تفشل الطموحات والاهتمامات والقيم المذكورة في تحقيق - إنسانية الإنسان - بمقدار ما توصف الحقبة بالفساد والتخلف.

ب . صفات المجتمع المغلق:

الصفة الأولى: لا يعي الناس في المجتمع المغلق أهمية العمل الجماعي ولا يحسنونه، ولذلك يسلمون زمامهم إلى **(نخبة طاغية)** تتسلط على **(الأكثرية)** وتسحقهم وتنقص من إنسانيتهم وتعزلهم

عن التفاعل مع واقعهم وتمنعهم من نقد هذا الواقع وتفرض عليهم **(ثقافة صمت)** تحيلهم إلى مجرد متفرجين على ما يجري حولهم ثم تحولهم من خلال ـ القولبة العقلية والشعورية ـ إلى فريسة للمقولات الخاطئة والدعايات المضللة لتسحرهم وتدمرهم وتذلهم.

وخلال عمليات التدمير والانتقاص المشار إليها يصاب الإنسان العادي بالذعر ويخشى العلاقات الصادقة ويشك في وجودها، ويجتمع هو وأقرانه في قطعان بشرية مدجنة مروضة دون وعي بحاضر أو أمل بمستقبل، وتفتقر إلى التفكير وقيم الإنسانية وروابط المودة اللازمة لقيام مجتمعات إنسانية حقيقية متعاونة ويصبحون تمامًا كما وصفهم القرآن الكريم:

﴿ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ ﴾ (الأعراف: 179).

الصفة الثانية: هي عجز الناس في **(المجتمع المغلق)** عن فهم قضايا أزمانهم والتطورات الجارية فيها، وعجزهم عن نقدها وتحليلها والتدخل في مجراها. ولذلك يجرفهم التطور التاريخي وتتقاذفهم تناقضاته ويتحولون إلى مخلب من مخالبها وضحية من ضحاياها. والقرآن الكريم يسمى هذا النوع من العجز (موتًا)، وإلى هذا يشير قوله تعالى:

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ ﴾ (الأنعام: 122).

والموت المشار إليه ـ هنا في الآية ـ هو موت القدرات العقلية والإرادية؛ وليس موت الجسد البشري، لأن الله لا يحي الأجساد الميتة حتى قيام الساعة. ولذلك فالمقصود هو موت ـ إنسانية الإنسان ـ التي تميزه عن الحيوان. ولذلك قالت الآية: ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾.

ولم تقل (يمشي به في الأرض) لأن الإنسان يمشي في الأرض بعينيه اللتين في رأسه ولكنه يمشي في الناس بقدراته العقلية الناضجة وإرادته النبيلة العازمة. وهما المقصودتان بالإحياء المشار إليه في الآية. ويرتبط بهذه الحقيقة خطورة الاعتداء على عقل الإنسان وإرادته بالكبت أو التعطيل أو القولبة. فالله سبحانه الذي حرم قتل (النفس البشرية) أي الجسد البشري إلا بالحق، والحق هنا هو القتل بالقتل؛ فإنه لم يبح إطلاقًا الاعتداء على إنسانية الإنسان وتدمير عقله وإرادته لأنه بهذا القتل العقلي ـ الإرادي يصبح حيوانًا عاجزًا عن شهود براهين الحق ونور الرسالة فيستحيل عليه الإيمان والأمان.

والصفة الثالثة: هي أن الإنسان في **(المجتمع المغلق)** لا **(يتكامل)** مع العالم المحيط وإنما **(يتكيف)** له. والإنسان **(المتكيف)** لا يكون فاعلاً وإنما يتحول إلى مفعول به يتأثر بالآخرين ولا يؤثر فيهم. والتكيف سلوك حيواني وعرض من أعراض فقدان الإنسانية وشكل من الأشكال الضعيفة للدفاع عن النفس، لأن الإنسان العاجز عن تغيير واقعه يتكيف لهذا الواقع ويخضع

لضغوطه ويستسلم لتحدياته. ولذلك حاول الناس خلال التاريخ ومازالوا يحاولون التغلب على العوامل التي تجعلهم **(يتكيفون)** ويرضخون لتحديات الواقع. وأكثر ما تظهر محاولاتهم هذه في محاربة الظلم الذي توقعه بهم (نخبة) طاغية في الداخل أو (شعب) يغزوهم من الخارج.

والصفة الرابعة: هي أن الإنسان في **(المجتمع المغلق)** يظل يعاني من بلادة الحس بأقسام الزمن: الماضي والحاضر والمستقبل. فيبقى الزمن بالنسبة له **(حاضرًا)** مستمرًا لا **(ماضي)** له ولا **(مستقبل)**. ولذلك يظل يعاني العجز عن فهم التحديات والضعف أمام المشكلات. وحين يتبدل **(الحاضر)** إلى ماضي، والمستقبل إلى حاضر يظل يعاني من التغيرات القوية خلال التحول الجاري دون أن يكون له أثر في مجراها ويرى في تناقضاتها علامات اقتراب الساعة وآخر الوقت[2].

(2) Paul Freire Education for Critical Consciousness, - New York: The Continuum Co. 1989, PP. 3-30.

الفصل الخامس 5

نظم التربية العربية الحديثة ونشر (القولبة العقلية) و (المجتمع المغلق)

التربية السائدة في الأقطار العربية - سواء تنشئة الأسر والجماعات أو تربية المدارس والجامعات، أو المؤسسات الدينية والثقافية، أو الأحزاب والجماعات، أو ممارسة المؤسسات الإعلامية والثقافية التي ترعاها الدول والحكومات - تربية ليس فيها من صفات التجديد شيء وذلك لأسباب هي:

السبب الأول: أنها (قولبة عقلية وإرادية) هدفها إبقاء العقل والإرادة أسيرين للتربية الكلامية والإطناب في اللغة. وبسبب هذه الصفة يتهم البعض هذه التربية بأنها تربية (نظرية). وهذا نقد خاطئ يجعل ما هو (نظري) مساوياً لما هو (لغو كلامي). والحقيقة أن التربية القائمة في الأقطار العربية الحديثة تفتقر إلى (التنظير) لأن التنظير تدخلٌ في الواقع وتحليل له يساعد على فهمه وخبرته بشكل كامل. والتربية القائمة في الأقطار العربية تفتقر إلى هذا التحليل والبحث والابتكار، ولذلك فهي ليست تنظيرية وإنما هي تربية (لغو كلامي) تقولب العقول وتشكل الاتجاهات طبقاً لما تقتضيه مصالح النخبة الحاكمة أو الطامعة. ولقد صممت مناهجها لتظل بعيدة عن الحياة، فارغة من الواقع، فقيرة إلى النشاط العلمي، معتمدة على العبارات البلاغية والاستظهار، ميالة إلى الخيال وتجسد السذاجة والسطحية.

والسبب الثاني: الذي يجعل التربية السائدة فقيرة إلى التجديد هو أن الأساليب المستعملة في مؤسساتها لا تشجع مناقشة الموضوع والجدال حولها، وإنما تحترم إلقاء الخطب والمحاضرات، ولا تشجع

العمل مع المتعلمين والناس العاديين، وإنما تشجع الاشتغال بهم وتفرض عليهم نظامًا صارمًا يجبرهم على التكيف طبقًا له. ولذلك فإن النظام التربوي الذي تطبقه الأسرة والمدرسة والجامعة والأحزاب السياسية والجماعات الإصلاحية لا يعد الناس للتكامل والمشورة والعمل الجماعي لأنه لا يقاوم ظاهرة بروز (القيادات المتسلطة) والجماهير (المدجنة).

والسبب الثالث: الذي يجعل التربية القائمة في الأقطار العربية تفتقر إلى التجديد أنها تربية متخلفة الولاء عن طور الأمة وعصر قرية الكرة الأرضية اللذين يحتاجان إلى المؤسسات الجماعية والعمل الجماعي، مغتربة في طور المجتمعات المحلية والولاءات الإقليمية والثقافات المحلية. وعن هذه الثقافة تنتج جميع المضاعفات المَرَضيّة في ميادين السياسة والإدارة والاقتصاد والعسكرية والتشريع وغير ذلك.

وتلعب مناهج التربية القائمة دورًا كبيرًا في التمكين لهذه الثقافة من خلال التبكير بتنمية الناشئة والمتعلمين في محاضن ثقافات العصبيات القبلية والإقليمية والعرقية القديمة والحديثة. ففي الأقطار العربية - مثلاً - تتجسد المحاضن المذكورة في أمثال معلقات امرئ القيس، والنابغة الذبياني، وعمرو بن كلثوم، وشعر المداحين والهجائيين والمتفاخرين من شعراء العصبيات القبلية قبل الإسلام، وامتدادات ذلك كله على أيدي أمثال جرير والفرزدق والأخطل والمتنبي ومن شاكلهم. فهذا الشعر وأمثاله من الخطب

والأدب - وإن كان لا يمد بكبير (معنى) ولا (معرفة) ذات قيمة معاصرة إلا أنه (يهتك) عقول الناشئة و(يغتصب) إراداتهم في سن مبكرة فيقتل فيهم الارتقاء إلى درجات التفكير التحليلي ويحبس إراداتهم عن المثل الأعلى - لإنسان التربية الإسلامية، ويسجن ولاءاتهم في دائرة العصبيات الضيقة، ويقتل فيهم القدرة على مواكبة التطور ودخول عصر قرية الكرة الأرضية الذي يعيشون فيه. وهو يحشو الناشئة حشوًا بالاتجاهات والولاءات والقيم السلبية التي كانت تحكم جاهلية ما قبل الإسلام لتشكل - فيما بعد - سلوكهم في سن البلوغ وفي مواقع القيادة والتبعية، والإدارة والسياسة والثقافة، والإعلام، والعلاقات الاجتماعية، والأداء الوظيفي، والانتماء العقائدي والمهني، وتنمي فيهم الارتجال بدل التخطيط والتنظيم، وسرعة الانفعال بدل الحوار العقلاني الهادئ، والنزعة الفردية بدل روح العمل الجماعي، واضطراب الأعصاب بدل تحقيق التطلعات ومجابهة التحديات وحل المشكلات بما (يقولون) لا (بما يفعلون) فيعالجون قضاياهم بالتصريحات والبيانات والخطب والمقالات بدل الأفعال الناجحة وتحقيق المنجزات.

والسبب الرابع: الذي يجعل التربية القائمة في الأقطار العربية تفتقر إلى القدرة على التجديد هي قصورها عن المستوى المطلوب في (الكم) التربوي و(النوع) التربوي سواء. أما عن (الكم) التربوي فإن الدراسات التي أجريت في التربية المقارنة تخبرنا بوضوح أن من الأسباب الرئيسية في فاعلية شعوب كاليابان مثلاً وسلبية شعوب

كالشعوب العربية والإسلامية هو الفارق الهائل في عدد المؤسسات التربوية في كلتا المنطقتين. فمثلاً يبلغ عدد الجامعات اليابانية ـ في الوقت الحاضر ـ حوالي (1000) ألف جامعة في بلد يبلغ عدد سكانه حوالي (60) ستين مليون نسمة، بينما العالم العربي الذي يبلغ حوالي (200) مليون نسمة لا يوجد فيه ما يساوي (100) مائة جامعة. ونفس النسبة تنطبق على عدد المدارس والمعاهد. أما عن (النوع) التربوي فإن مقارنة محتويات التربية في بلد كالولايات المتحدة بنظائرها في الأقطار العربية والإسلامية تكشف أن (فاعلية) شعب الولايات المتحدة و(عجز) شعوب العرب والمسلمين هو أن المناهج التربوية في الأولى تتركز حول حاجات (الحاضر) وتحدياته. وفي سبيل هذا الحاضر تستثمر خبرات (الماضي) ويجتهد في اكتشاف تحديات (المستقبل) فيما تسميه قرية الكرة الأرضية كلها، في حين تطبق مناهج التعليم العربية والإسلامية (ملهاة تربوية) خلاصتها تجنب مناقشة (الحاضر) ونفي الدراسين في (ماضي) الآباء و(حاضر) الغرباء.

والسبب الخامس: الذي يجعل نظم التربية القائمة في الأقطار العربية عاجزة عن إخراج الإنسان العربي القادر على دخول التاريخ والمشاركة في صنع أحداثه ومنجزاته هو افتقار هذه النظم التربوية إلى ـ المثل الأعلى ـ الذي يستحث المتعلم لاستخراج وسعه الكامل من المقدرات العقلية والجسدية والنفسية من أجل اكتشاف ـ هويته وإنقائه الحضاري ـ ثم يحرك إرادته العازمة لترجمة هذا ـ المثل

الأعلى - في ممارسات تزكي سلوك الأفراد، وتوجه شبكة العلاقات الاجتماعية، إلى المدى الذي يمكن هذه الفئات من تحقيق الإبداعات والإنجازات وإيثار الصالح العام على المصالح الفردية والأسرية والعصبية، وتصنع من ولاءاتهم روافد إيجابية تصب في تيار الهوية العربية - الإسلامية وتجسيدها في الواقع العربي. **لقد أصبح الفقر التربوي في - المثل الأعلى - مرضًا مزمنًا في الواقع العربي وزاد في استعصاء هذا الفقر وزيادة مضاعفاته، النفاق الثقافي والتربوي الذي صنع - ومازال يصنع - من القيادات والولاءات العصبية، مثلاً أعلى للناشئة في الأقطار والأقاليم العربية. وزاد في فقر المثل الأعلى التناقض الحاد بين التنظير والتطبيق والسياسات المزدوجة التي يمارسها وزراء التربية ومساعدوهم، فهم في الاتفاقات التي يعقدونها تحت مظلة المنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم، وفي الإصدارات الرسمية واللوائح القانونية وكراريس السياسات التعليمية يملئون المجلدات عن ضرورة تركيز أهداف التربية على تنمية الولاء للوحدة العربية والتراث الإسلامي والقيم الثقافية الأصيلة، ولكنهم في ميدان التطبيق والممارسة يملئون الكتب المدرسية ويوجهون النشاطات التربوية لتعزيز عبادة الفرد الحاكم، والولاء الإقليمي، وتمرير المشورات الأجنبية في النيل من الثقافة والتربية والتعليم. كذلك أسهمت المؤسسات التربوية الأجنبية من المدارس الخاصة والجامعات في تغريب الناشئة ودفعهم إلى تبني (مُثُل سوء) مستوردة من الفلسفات والأيديولوجيات التي**

تقاسمت ولاءات الناشئة العرب وجعلتهم شيعًا وأحزابًا متباغضة مضت في تناحرها إلى المدى الذي جعلها تقاتل بعضها بعضًا وتستنزف الطاقات وتهدر الموارد البشرية والمادية.

وكانت محصلة ذلك كله أن صار المثل الأعلى عند الإنسان العربي ـ من الناحية الواقعية ـ يدور حول قراءة المتعلم باسم نفسه وقليل هم الذين يقرءون باسم ربهم ثم باسم (أممهم) لتكون هذه القراءة سبيلاً إلى تحسين الحالة المادية للفرد الواحد تحت أي لواء، وفي أي بلد، تمنحه جنسيتها وتقبله مهاجرًا إليها.



التربية والفاعلية وسلم الحاجات الإنسانية

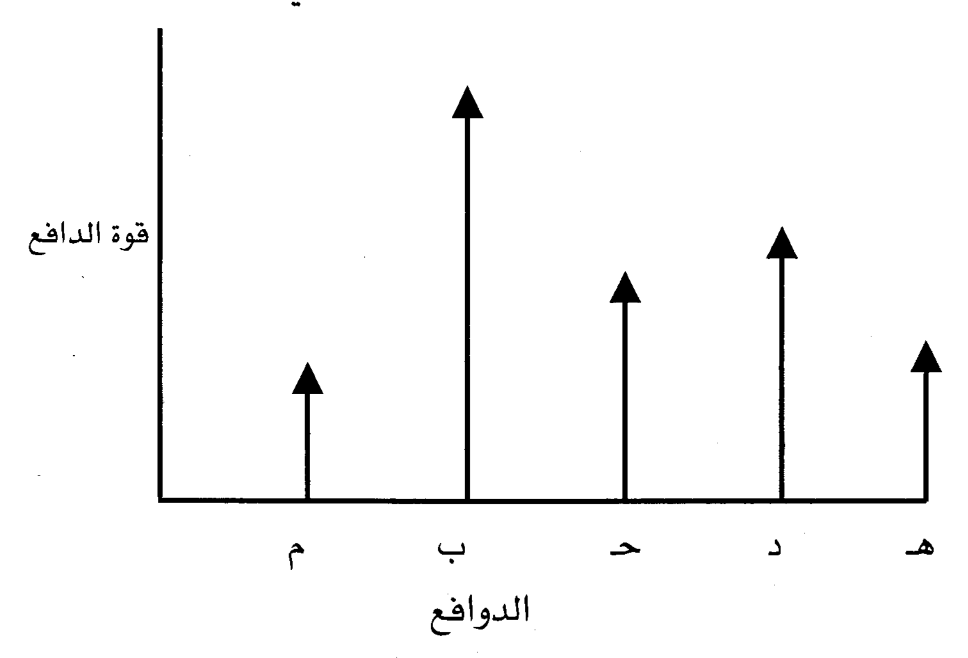
هناك علاقة متلازمة وطردية بين تلبية الحاجات الفطرية في الإنسان وبين تفجير طاقاته في العمل ورفع درجة فاعليته في الإنجاز والإبداع. والعبث بهذه الحاجات يعطل فاعلية الإنسان ويشيع الخلل في ممارساته وينتهي به إلى العجز والكسل مما يؤدي إلى ضعف الأمة القائمة وانحلالها.

لذلك تضع التربية التجديدية في قمة أهدافها تطوير نظام قيم تحترم الحاجات الإنسانية وتعمل على توفيرها وصيانتها. وليكون عمل التربية التجديدية فعلاً لابد وأن يقوم على أساس من الوعي الكامل بالحاجات الإنسانية وتوفير إشباعها وأثرها في سلوك الإنسان واتجاهاته ومهاراته. ولتوضيح ذلك نتناوله بشيء من التفصيل:

1- الحاجات الإنسانية:

أولى علم النفس - ظاهرة الحاجات الإنسانية - عنايته، وتناولتها علوم السياسة والإدارة والتربية بالتطبيق، ومن المصادر المعتمدة في هذا المجال - نظرية سلم الحاجات عند أبراهام ماسلو Abraham Maslow رائد علم النفس الإنساني Humanistic Psychology التي تقول بتفرد الإنسان وترفض المقررات التي تسوي بينه وبين الحيوان.

وتقوم هذه النظرية على أن للإنسان دوافع أو حاجات كثيرة تتزاحم لتوجيه سلوكه وتتخذ أوضاعًا متغيرة في حياته حيث تقوى أحيانًا وتضعف أخرى وأقوى هذه الحاجات في لحظة معينة تقود إلى النشاط وتوجيه السلوك كما في الشكل التالي:



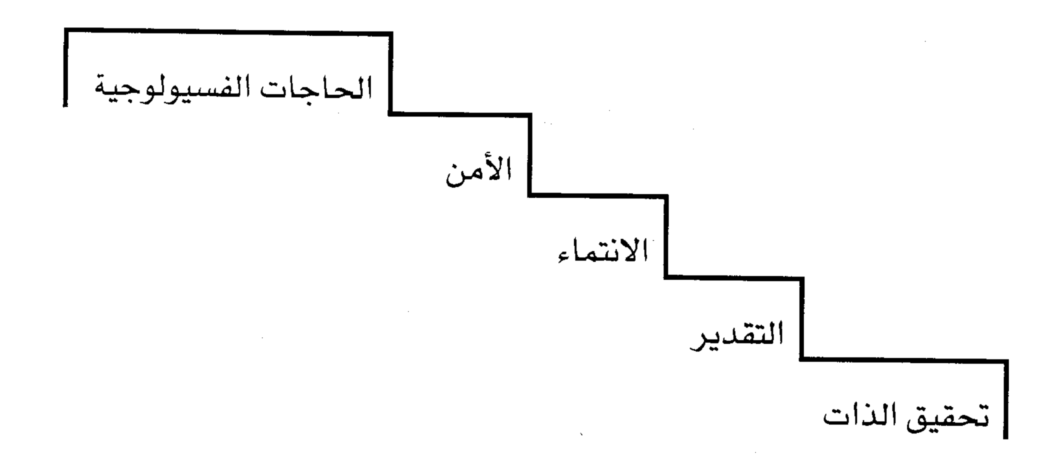
فالدوافع أو الحاجة ب هي الأقوى ولذلك توجه سلوك الإنسان في هذه اللحظة وتفرز نوع النشاط الذي يمارسه.

ويصنف ماسلو هذه الحاجات في مجموعات رئيسية هي:

الحاجات الفسيولوجية	Physiological Needs
حاجات الأمن	Safety Needs (security)
حاجات الانتماء	Social Needs (affiliation)
حاجات التقدير	Esteem Needs (Recognition)
حاجات تحقيق الذات	Self-actualization Needs

أما ترتيب هذه الحاجات من حيث القوة والضعف وأثر ذلك في فاعلية صاحبها ومنجزاته فهو يتم طبقاً للأشكال التالية:

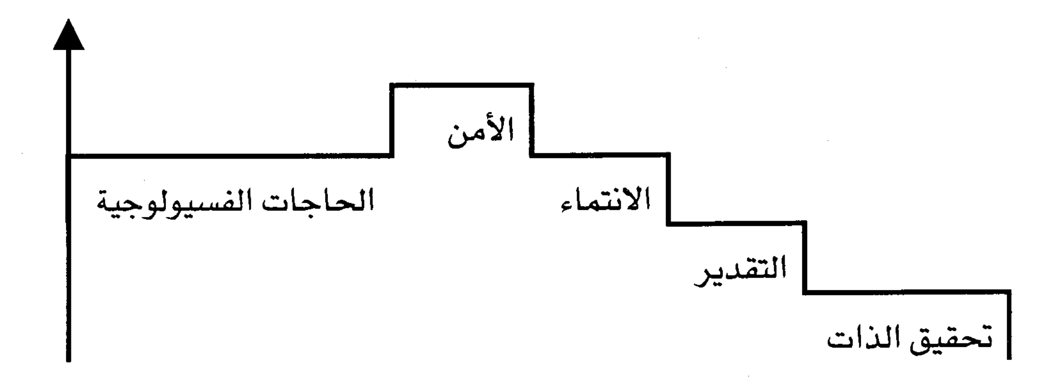
أ ـ الشكل الأول: الحاجات الفسيولوجية:



في الشكل (أ) الذي يظهر أعلاه تقع الحاجات الفسيولوجية في أعلى السلم وتبدو أقوى الحاجات لأنها حاجات أساسية ضرورية للحياة نفسها مثل الحاجة إلى الطعام، والحاجة إلى اللباس، والحاجة إلى المأوى، والحاجة إلى الزواج. وما لم تشبع هذه الحاجات الأساسية إلى درجة تضمن حياة الجسم والقيام بوظائفه فإن غالبية اهتمامات الإنسان ونشاطاته سوف تتركز حول هذه الدرجة من سلم الحاجات بينما تنال بقية المستويات قليلاً من الدافعية.

ب ـ الشكل الثاني: حاجات الأمن:

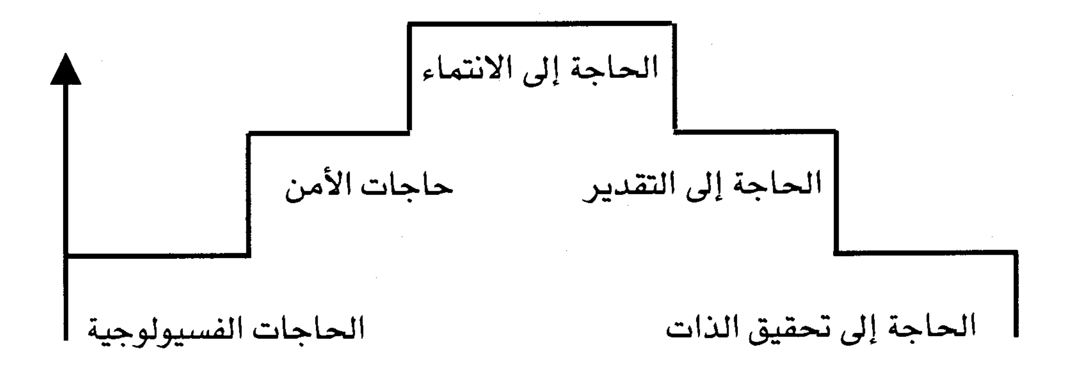
عندما تبدأ الحاجات الفسيولوجية بالاكتفاء تصبح الحاجات التالية في السلم وهي ـ حاجات الأمن Safety أو Security أكثر هيمنة وتسيطر على الاهتمامات وتوجه النشاطات كما يتضح من الشكل التالي:



في الشكل (**ب**) تبدو حاجات الأمن في أعلى السلم أي أنها أقوى الحاجات. وحاجات الأمن تعني التحرر من الخوف أو الإيذاء الجسدي أو الحرمان من الحاجات الأساسية. أي أنها تعني حفظ النفس وصيانة الحرمات وصيانة الممتلكات والعمل أو الوظيفة حتى يستطيع الفرد توفير الغذاء والمأوى لغده وما بعد. فإذا كان أمن الإنسان في خطر فإن بقية الحاجات تصبح غير مهمة عنده ويتركز اهتمامه ونشاطه وسلوكه لتوفير الأمن الذي ينشده واتقاء الخطر الذي يتهدده.

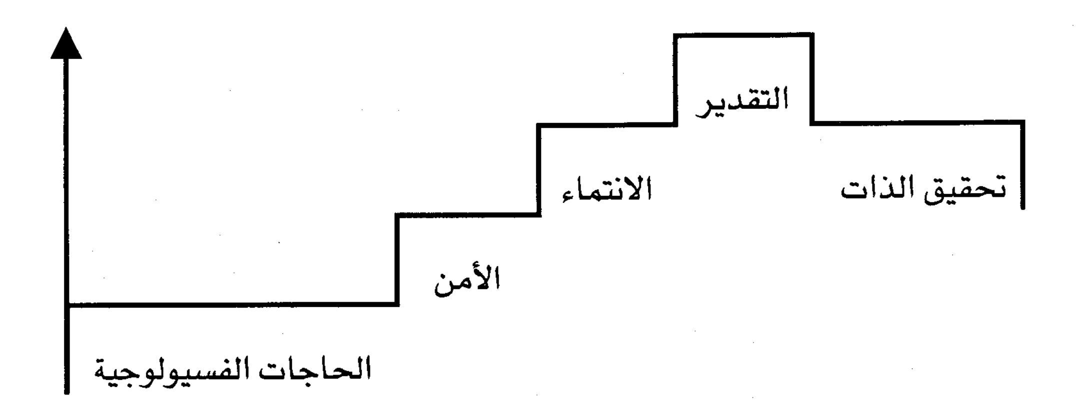
جـ ـ الشكل الثالث: الحاجة إلى الانتماء:

وثالثة الحاجات هي ـ الحاجة إلى الانتماء ـ إذ لما كان الإنسان كائنًا اجتماعيًا لا يستطيع العيش في عزلة فإن له حاجة إلى الانتماء والتقبل من الأفراد والجماعة. ولذلك حين تشبع لديه الحاجات الأساسية وحاجات الأمن إلى الدرجة المقبولة، فإنه يبدأ التطلع إلى إيجاد علاقات ذات معنى مع الآخرين، وتصبح ـ الحاجة إلى الانتماء ـ أقوى دوافع السلوك لديه كما هو واضح من الشكل التالي:



د ـ الشكل الرابع: الحاجة إلى التقدير:

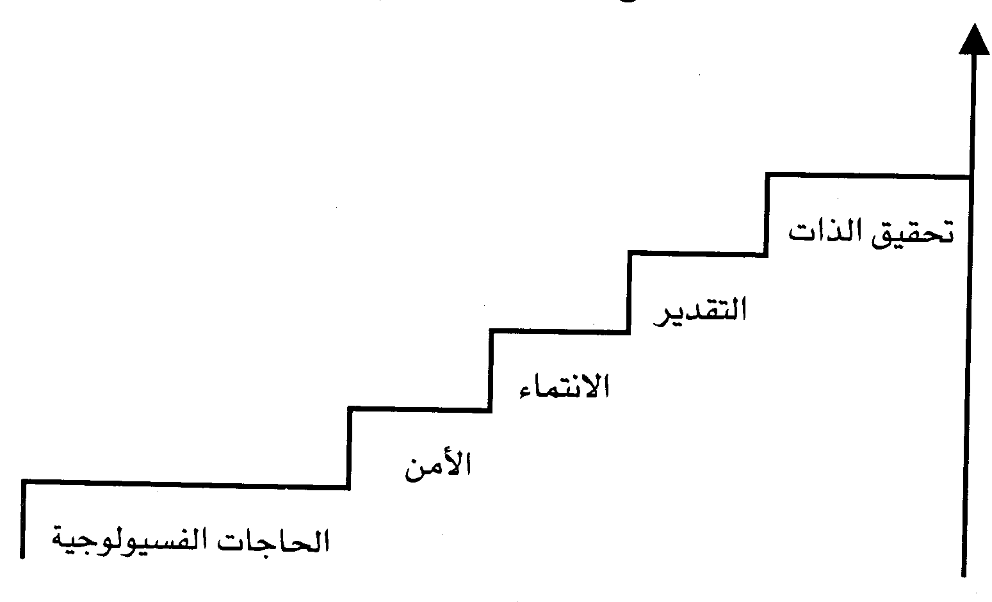
بعد أن يبدأ الفرد بإشباع حاجة الانتماء فإنه في الغالب يطمح لينال احترام الجماعة التي ينتمي إليها وتصبح الحاجة الرابعة ـ أي الحاجة إلى التقدير ـ محور اهتماماته ومواجهة سلوكه ويصبح سلم الحاجات عنده في الشكل التالي:



ويتعلق بـ - حاجة التقدير - دافعان : المكانة، والقوة. أما المكانة فقد تولد مع الفرد إذا ولد في عائلة أو بيئة لها مكانتها. والناس يبحثون عن المكانة بطرق عديدة، ويكتفي الكثير بالبحث عن مظاهرها المادية بينما يجاهد آخرون لنيلها بالإنجاز الشخصي وتحقيق الذات. أما عن القوة فهي نوعان: قوة المركز، وقوة الشخصية. وهناك أناس لا قوة لهم على الإطلاق.

هـ - الشكل الخامس: الحاجة إلى تحقيق الذات:

عندما تبدأ الحاجة إلى التقدير بالإشباع بشكل مقبول فإن الفرد يبدأ في التطلع إلى ما يثبت هذا التقدير ويخلده. ولذلك تصبح - الحاجة لتحقيق الذات - أقوى دوافع السلوك وتتمركز في قمة الحاجات كما هو واضح في الشكل التالي:



وحاجة تحقيق الذات تستدعي مضاعفة إنتاج الفرد وبلوغ أقصى ما يستطيعه من الإبداع.

فالمفكر يحتاج أن يكتب وينتج أحسن ما يستطيعه من الأفكار. والقائد يحتاج أن يحقق أروع الانتصارات ويكسب أضخم المعارك، والسياسي يحتاج أن ينجز أعظم الأعمال.

وهكذا فإن تحقيق الذات هو الرغبة في أن يصبح المرء ما في وسعه أن يكون، وهذا ما يجسد (الفاعلية) في أكمل صورها.

والبحوث التي تناولت - حاجة تحقيق الذات - بعد ماسلو، بلورت هذه الحاجة في دافعين اثنين هما: دافع الجدارة، ودافع الإنجاز.

أما الجدارة أو الكفاءة فهي تتضمن القدرة في السيطرة على عوامل البيئة الطبيعية والاجتماعية. فالناس الذين لديهم هذا الدافع لا ينتظرون حدوث الأشياء من ذاتها، وإنما يريدون أن تكون لديهم القدرة على تشكيل البيئة لحدوث الأشياء. وتعتمد قوة هذا الدافع أو ضعفه على تجارب النجاح والفشل الماضية.

وتتشكل توقعات الأفراد حسب هذه الخبرات. فالذين تكون توقعاتهم سلبية تضعف عندهم روح المخاطرة والمبادرة. وهؤلاء يتركون بيئتهم تتحكم بهم أكثر من المحاولة على تغييرها. وهذا الدافع متغير غير ثابت حسب خبرات النجاح والفشل. وعلى كل حال هناك وقت يميل فيه دافع الكفاءة إلى الهدوء والركود. وبعد أن يصل الفرد إلى سن معينة فإنه نادرًا ما ينجز أكثر مما يظن أنه قادر عليه لأنه يحاول إنجاز أشياء يظن أن ليس له قدرة عليها.

وأما - الإنجاز - فقد لاحظ علماء السلوك أن بعض الأفراد لديهم حاجة قوية إلى الإنجاز، بينما آخرون، وربما الأكثرية، لا يبدو أنهم يهتمون بالإنجاز. ويرى بعض المختصين أن أبرز خصائص الأشخاص الذين لديهم حاجة عالية إلى الإنجاز هي:

أولاً : دراسة الشيء بدقة قبل البدء به.

ثانيًا : اعتدال روح المخاطرة.

ثالثًا : الاهتمام بالإنجاز أكثر من الحوافز أو الجوائز.

رابعًا: قضاء وقت أكبر في التفكير بما يجب عمله [1].

وليس من الضروري - حسب رأي ماسلو - أن تعمل حاجات الإنسان طبقًا للنسق الذي قدمه، وليس من الضروري أن تنطبق هذه الحاجات على كل بني الإنسان، ولكنها هي النموذج الغالب الذي يعمل في غالب الأوقات والأشخاص.

ولقد لاحظ - ماسلو - أن هناك نماذج من البشر لا تذعن لضغوط سلّم الحاجات المشار إليها، وضرب مثلاً بالقائد الهندي غاندي الذي ضحى بحاجاته الفسيولوجية والأمن ليشبع الحاجات الأخرى عندما كانت الهند تكافح للاستقلال من سيطرة بريطانيا [2].

---

(1) Pqul Hersey and ken Blanchard, Management of Organizational Behavior (Englewood Cliffs Prentice-Hau, Inc.1982) PP.37-40.

(2) Paul Hersey & Other, OP. Cit, P. 29.

ولا أريد الخوض في درجة النقد لـ ـ ماسلو ـ وهو ينتبه لفرد واحد مثل غاندي ويغفل عن جيل كامل مثل جيل الصحابة في التاريخ الإسلامي الذين قدموا المثل الفريد للتضحية بالحاجات الفسيولوجية والأمن في سبيل الارتقاء إلى حاجة تحقيق الذات. ولكنه يظل جيلاً فريدًا غير قابل للتكرار بالحجم والزخم نفسيهما ـ حسب تقرير القرآن نفسه ـ الذي نص بصراحة على أن بلوغ هذه الدرجة يتصف به ثلة من الأولين وقليل من الآخرين.

2 ـ التوجيه القرآني والحاجات الإنسانية:

إن النظر الراسخ في القرآن الكريم يرشد إلى أن الله سبحانه وتعالى لم يفرض التضحية والعزائم قاعدة مستمرة في استراتيجية العمل الإسلامي وإنما وجه إليها رسوله ﷺ مؤقتًا في الوقت الذي وجهه لأن يبحث عن مهجر يهاجر إليه ويعمل على توفير درجات سلّم الحاجات كافة لأتباعه فيه ابتداء من الحاجات الفسيولوجية ثم حاجات الأمن والاحترام والانتماء مما يهيئ لهم تحقيق ذواتهم الإنسانية التي فطروا عليها في الجدارة والإنجاز وهم يجاهدون لحمل رسالة الإسلام إلى العالم كله.

ويلاحظ أن مراعاة سلّم الحاجات الإنسانية مبدأ أصيل في الرسالات الإلهية التي يتحدث عنها القرآن الكريم، ويبدو ذلك واضحًا في الآيات التي تتحدث عن دعاء إبراهيم عليه السلام:

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ

ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (إبراهيم:37).

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ (البقرة: 126).

فالدعاء من أجل إشباع ـ حاجات الأمن، والفسيولوجية (الثمرات)، وحاجات التقدير (من أفئدة الناس)، وسائل تعين ذرية إبراهيم على التفرغ لحاجات تحقيق الذات حسب المفهوم الإلهي وهي ﴿ **لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ** ﴾ و ﴿ **لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** ﴾، وإقامة الصلاة تعني إقامة معانيها في واقع الحياة، أما حقيقة الشكر فهي أن تستعمل نعم الله طبقاً للمنهج الذي يوجه إليه، وإقامة الحياة في ضوء هذين المبدأين تجسيد لـ (الفاعلية) الفاعلة التي توظف (الجهد) الإنساني و(وسع) البشر لإنجاز مراد الله في بناء حضارة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولا يقصر القرآن الكريم توفير ـ الحاجات الإنسانية ـ على جنس معين، أو أتباع عقيدة معينة، بل يجعلها حقاً مقرراً لجميع الناس منهم المؤمنون أو الكافرون. فحين قصر إبراهيم عليه السلام دعاءه بالأمن والثمرات وإيواء أفئدة الناس على (من آمن) من ذريته جاءه الجواب الإلهي ﴿ **وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً** ﴾. والقليل هنا هو فترة الحياة الدنيا، ووصفت بالقلة لقصر زمنها إذا ما قورنت بالآخرة الأبدية اللامتناهية.

ويستنتج من هذا عدم جواز العبث والمساس بحاجات الغذاء

والإيواء والأمن والاحترام بسبب الاختلاف في المعتقدات والسلوك والآراء والمواقف. فلا نفي ولا مصادرة ولا قطع لموارد العيش ولا إيقاف عن العمل ولا اعتداء على الحريات والكرامات. وفي القرآن الكريم أن المناسبة في نزول قوله تعالى:

﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾
(البقرة:272).

هي أن جماعة من المسلمين كانوا ينفقون على قوم من يهود قريظة والنضير في المدينة تربطهم بهم روابط النسب والقربى، فأرادوا إيقاف النفقة عنهم لإجبارهم على الدخول في الإسلام فنزل الوحي ينهي الرسول ﷺ ويخبر المسلمين أنه لا يرضى بالضغط الاقتصادي أن يكون وسيلة لهداية الناس[1].

ومثلها تمامًا حين أراد أبو بكر الصديق أن يوقف العون المالي الذي كان يدفعه لبعض أهل الإفك الذين نالوا من سمعة ابنته عائشة زوجة رسول الله ﷺ، فجاء الوحي ينهى عن قطع هذه المعونة:

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ (النور:22).

(1) الطبري، التفسير، (سورة البقرة: 272) جـ3 ، ص94.

3- العبث بالحاجات الإنسانية وتوقف فاعلية العربي المعاصر:

يعترف الكثير من خبراء السياسة والمختصين في التربية أن قوانين - ماسلو - وعلم النفس في سلّم الحاجات الإنسانية تطبق في كل من مجتمعات العالم المتقدم ومجتمعات العالم الثالث بما يحقق أهداف العالم الأول في التقدم والقوة ويبقي العالم الثالث حبيس التخلف والضعف.

ففي المجتمعات المتقدمة تقوم السياسات الإدارية والممارسات المدنية والأمنية على توفير جميع الحاجات الجسدية وحاجات الأمن والاحترام والانتماء للمواطن - في الداخل والخارج - إلى درجة الإشباع حتى يصبح أقوى دافع في سلّم حاجاته هو الحاجة إلى تحقيق الذات من خلال الإبداع العلمي والإنجاز الاقتصادي والوظيفي في ميادين الحياة المختلفة.

أما في مجتمعات العالم الثالث - ومنه غالبية المجتمعات العربية - فقد جرى تطبيق - سلّم الحاجات - تطبيقًا عكسيًا أدى إلى تدمير فاعلية الإنسان في هذه المجتمعات. فالأغلبية الساحقة من إنسان هذه المجتمعات مثبتة عند دوامة البحث عن الغذاء والكساء والسكن والزواج - أي عند الحاجات الفسيولوجية - مما يجعل ارتقاء الإنسان إلى درجة تحقيق الذات: أي درجة الجدارة والإنجاز أمرًا مستحيلاً، أما أدوات تدمير هذه الحاجات فتتم من خلال إهدار الموارد الطبيعية لهذه الأقطار في الانقلابات العسكرية والخصومات الطائفية والإقليمية والفتن السياسية والأنظمة

الدكتاتورية وأمثال ذلك. كذلك هدمت ـ حاجات الأمن ـ من خلال إشاعة سوء العلاقات بين القيادات والشعوب وإبقاء الجميع حبيس الحذر والريبة وعدم الثقة وما ينتج عن ذلك من توتر واضطراب ونزيف بشري بسبب الحجز الأمني في الداخل والهجرات إلى الخارج. ويعترف الكثير من الخبراء والمختصين بأن أنظمة الحكم الدكتاتورية والإجراءات البوليسية أقيمت في أقطار العالم الثالث لتكون أدوات تهدم أمن الإنسان واحترامه مما يبقيه مثبتًا عند الحاجة إلى الأمن عاجزًا عن الصعود إلى درجة تحقيق الذات حيث الجدارة والإبداع والإنجاز [1].

كذلك هدمت ـ حاجات الانتماء ـ من خلال نشر المذاهب والأيديولوجيات المتنافرة المتناحرة والتمزيق الجغرافي ومحاربة عوامل الوحدة وتنظيم مناهج التربية والثقافة لإشاعة ظواهر (الاغتراب الثقافي) عند الناشئة وتركهم فريسة الإحساس بالنقص والظواهر المرضية في الاجتماع والأخلاق.

ومما ضاعف في حدة الأزمة والاضطراب في سلّم حاجات الإنسان المعاصر في الأقطار العربية والإسلامية هو التناقض الحاد بين عمل المؤسسات التربوية والثقافية والمؤسسات الإدارية والأمنية. فقد دأبت المؤسسات التربوية والإعلامية ودور النشر على شحن الناشئة بأفكار الحرية والوحدة واحترام الإنسان، وأخوة العروبة

(1) Noam Chomsky, Detering Democracy, New York: Hill and Wang, 1992.

والإسلام. وحين يستجيب المواطن لهذه المثيرات التربوية والثقافية استجاباته الأولى، ويحاول أن يتمثلها في سلوكه ومواقفه واتجاهاته، كانت المؤسسات الإدارية والأمنية ومازالت، تسارع إلى مقابلته بالإدانة القاسية والعقوبة الشديدة بدل أن تتكامل مع المؤسسات الأولى لإرشاده وتوجيهه إلى التطبيق السليم.

وحين تتسع رقعة خبراته وتمتد خارج القطر الذي يسكنه إلى الأقطار العربية والإسلامية يصدم بتطبيقات وقوانين وممارسات تدفعه دفعًا إلى الكفر بأفكار الوحدة والإصلاح والأخوة التي شحنته بها المؤسسات التربوية والثقافية، فهو يصطدم بحواجز السفر الإقليمي، والقوائم السوداء الإقليمية، والإقامة الإقليمية، والاضطهادات الإقليمية. وكانت النتيجة سلسلة من الإحباطات والانشطارات النفسية التي غسلت الأدمغة من كل إيمان (بالوحدة) ومن كل ولاء للعرب أو المسلمين. ولقد تضاعفت سلسلة الانفجارات الفكرية والنفسية وانتهت بالكثير من الأفراد - خاصة الأذكياء والموهوبين - إلى الكفر بقضايا العروبة والإسلام، وتوالت أشكال الردة، وعبرت عن نفسها في مظاهر شتى تتنوع بين العزلة والتقوقع، أو الكيد والانتقام، أو الانحلال الاجتماعي والأخلاقي، بعد أن انهارت الحدود الجغرافية والثقافية بين أقطار الكرة الأرضية، واستطاع إنسان المجتمعات العربية والإسلامية أن يرى - الأمريكيين والأوربيين مثلاً - وهم يعيشون في قارة كاملة تزيد كل ولاية فيها عن أكبر دولة عربية أو إسلامية، ولكنهم لا

يتدابرون ولا يتناحرون والسياسة عندهم لا ترتفع مكانتها في نفوسهم عن منافسات الألعاب الرياضية . عندهم لا عند العرب والمسلمين . فزاد ذلك كله في إحباط إنسان المجتمعات العربية والإسلامية وضعف فاعليته وعجزه عن الجدارة والإنجاز.

التربية والفاعلية
والقوى المحافظة والمتطرفة وا لمجددة

1- التجديد والتحول التاريخي:

المجتمعات الإنسانية والظواهر الكونية في تغير دائم؛ وهو ما يشير إليه أمثال قوله تعالى:

﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ (الرحمن: 29)

وقوله: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ (القصص: 68)

ومثلها في سورة الفلق ... وحيث يعبر عن هذه المتوالية الخلقية بمصطلح - الفلق - الذي يعني تلاقح الأزواج في عوالم الأفكار والأشخاص والأشياء ثم انفلاقها لإنجاب مخلوقات جديدة قد تجلب النفع أو الضرر حسب وعي الإنسان بسنن هذا الخلق وقوانينه. ولذلك وجهت السورة الإنسان المسلم إلى أهمية الوعي هذا عند قوله تعالى :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ ﴾ (الفلق : 1-2).

ومن سنن هذا الخلق الجديد يفرز علاقات جديدة، والعلاقات الجديدة تتطلب صياغة جديدة للقيم التي تنظم هذه العلاقات. والقيم الجديدة تحتاج إلى تجديد المؤسسات والتطبيقات والوسائل التي تجسد هذه القيم في ممارسات عملية جديدة. والممارسات الجديدة تحتاج إلى تربية جديدة وتدريب جديدة وهكذا...

2- التحول التاريخي وظهور الاختلاف والتنازع:

ولكن الناس لا يعون هذه السلسلة في عمليات الخلق الجديد. أو علميات التحول التاريخي. ولا يحسنون التعامل مع ما تنفلق عنه بفعالية، ولذلك تتقاذفهم التحولات الجديدة ويقعون ضحية الاختلاف والتنازع وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (ق : 15).

والسبب في هذا الاختلاف والتنازع أن المجتمع حين يبدأ الحركة من (حقبة) زمنية إلى أخرى فإن المخلوقات الجديدة التي ينفلق عنها تفاعل الأزواج كلها تبرز معها قيماً جديدة تظهر وتبدأ في تجنيد أنصارها والعمل على تأكيد وجودها، من خلال الدعوة إلى إعادة تشكيل المؤسسات والنظم القديمة القائمة وإفراز مؤسسات ونظم جديدة تجسد القيم الجديدة في واقع جديد، الأمر الذي يثير القيم والمؤسسات والنظم القديمة فتنهض مذعورة وتستنفر أتباعها للحفاظ على ذاتها وهيمنتها ويبدأ الصراع بين القيم القديمة والقيم الجديدة وينقسم الناس إلى ثلاثة أقسام:

3- القوى الثلاث والتنازع:

القسم الأول : قسم القوى المحافظة ؛ وهى القوى التي تريد المحافظة على ثبات المؤسسات والنظم والقيم والأوضاع القائمة ، وتعمل على (إيقاف حركة التاريخ). أي هي قوى تغترب في الواقع حتى تنسى (المثل الأعلى) الذي يطرح نموذج المستقبل.

والقسم الثاني: قسم القوى المتطرفة؛ وهى التي (تحس) بحركة التاريخ وتريد تسريع حركته أو تغيير مسارها . وغالباً ما يكون أعضاء هذا القسم من ـ النخب المقهورة ـ التي لا تتزكى من مضاعفات بيئة الظلم والطامعة في النفوذ والتملك دون أن يكون لديها (وعي) بحركة التاريخ وقوانينه. وهذه القوى المتطرفة تنقسم إلى قسمين: قوى يسارية، وقوى آبائية، والعامل المشترك الذي يجمع بين الفريقين هو السعي إلى استبدال (النخبة المتسلطة المحافظة) بنخبة متسلطة متطرفة ، ولكنهما يختلفان في مصدر القيم التي يتسلح بها كل منهما لتحقيق هدفه. ففي حين تستعير القوى اليسارية قيمها من ثقافات المجتمعات الأخرى، فإن القوى الآبائية تستعير قيمها من ماضي الآباء المزدهر، وحين يصل أي الفريقين إلى هدفه فإنه يتحول إلى (نخبة محافظة) تعمل على إيقاف حركة التاريخ.

والقسم الثالث: قسم القوى المجددة وهي القوى التي (تعي) حركة التاريخ وطبيعة الحقبة الزمنية التي تعيش خلالها، وتعمل من خلال التربية وتجديد المعرفة وتأصيلها على تجديد القيم

والمؤسسات والمهارات العقلية والعملية والاتجاهات الإرادية عند إنسان الحقبة الجديدة، وتعمل على (تزكيته) من آصار الجمود والتطرف ليصبح قادراً على التعامل مع مظاهر الخلق الجديد خلال حركة التاريخ الجارية من حوله. والقوى المجددة ـ خلال عملها التجديدي ـ تتفاعل مع ماضي الآباء لاكتشاف جذور حاضرها فيه، ومع خبرات الغرباء للاستفادة من الخبرات الحكيمة فيهما، ومع (آيات الكتاب) لإنزالها على واقعها وصياغة (غايات) هذا الواقع، ومع (آيات الآفاق والأنفس) لاستخراج (وسائل) تحقيق هذه الغايات، ثم استثمار ذلك كله في صياغة (حاضرها) وعبور (مستقبلها) وتلبية حاجاتها، وحل مشكلاتها، ومواجهة تحدياتها. والخلاصة أن القوى المجددة تحسن الربط بين (المثل الأعلى) الذي يطرح نموذج المستقبل وبين الواقع بحاجاته وتحدياته. وأعضاء هذا القسم يزيدون أو ينقصون طبقاً للبيئة التربوية ـ المعرفية التي تتصف بها البيئة الاجتماعية المحيطة؛ فهم يولدون نتيجة ازدهار الحركة التربوية والعلمية والثقافية التي تتمركز في قلب الحاضر وتتحرر من جميع أشكال التأثير والنفوذ، وتتزكى من جميع الآصار الاجتماعية والأغلال الفكرية في البحث والاجتهاد ، ويُحشَد لها الموهوبون الأذكياء في الداخل، ويغرى بالقدوم والانضمام إليها الدارسون المتفوقون والعلماء المتخصصون من الخارج.

وغياب هذا القسم ـ من المجددين ـ أو نقص عدده يتسبب في تعثر مسيرة المجتمع في مساقط الفشل والفتن والإحباط وفقدان

الفاعلية. وهذا ما يشير إليه الحديث النبوي القائل: (**يقبض العلم ويظهر الجهل والفتن، ويكثر الهرج. قيل : يا رسول الله وما الهرج؟ فقال هكذا بيده فحركها كأنه يريد القتل**).

ولتكون القوى المجددة قادرة على مواجهة التحولات الجديدة وتنظيرها وتوجيهها تحتاج إلى الوعي الراسخ والإحاطة الشاملة بثلاثة أمور: وعي بطبيعة التغير وما يتخلله من اختلاف وتنازع، وتربية تجديدية تؤهل الناس للتكامل التغير الجاري حولهم، وبيئة إدارية تترجم ثمرات التربية التجديدية إلى مؤسسات واستراتيجيات تنتفع بإيجابيات التغير وتتجنب سلبيته.

أما عن **الأمر الأول**؛ فلقد ذكرنا أعلاه أن التغير يبدأ حين يبدأ المجتمع الحركة من (حقبة) زمنية إلى أخرى مما يؤدى إلى ظهور قيم جديدة تعمل لتأكيد وجودها، ونهوض القيم القديمة للدفاع عن نفسها، وأن كل منهما تجند أنصارها وتخوضان صراعاً تقل حدته أو ترتفع بقدر نجاح قوى التجديد أو فشلهم.

ومن خلال الصراع بين القيم الجديدة والقديمة تزداد التناقضات بين نماذج المؤسسات وأشكال التفكير والسلوك المجسدة لكل نوع من القيم المذكورة، وكلما تعمقت التناقضات كلما اشتد المد والجزر الثقافي وتأزم المناخ الانفعالي، وأضفى طابعه على ممارسات الحياة التي تجري والقرارات التي تصنع. ولكن أخطر مظاهر التأزم هو الشكل الذي يتخذه الاختلاف والتنازع، فإما أن توجهه قوى المحافظة والتطرف وتنقله على ميادين السلاح وسفك

الدماء والتدمير، وإما أن توجهه القوى المتجددة فتنظمه وتحيله إلى رافعة من روافع التغير النافع ووسيلة من وسائل التقدم.

4- الاختلاف والتنازع في القرآن الكريم:

وتتكرر الإشارة إلى التنازع والاختلاف في القرآن الكريم وذلك عند أمثال قوله تعالى:

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ ﴾ (هود : 118-119).

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ ﴾ (آل عمران: 152).

ويتكرر مصطلح - التنازع - هذا في سبع مواضع من القرآن الكريم. ويلاحظ على التوجيهات المتعلقة به أمران: الأول، نهي المؤمنين عن التنازع لأنه سبب في الفشل وتبديد القوى. وذلك واضح من أمثال قوله تعالى:

﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٤٦ ﴾ (الأنفال : 46).

والأمر الثاني، عدم استغراب حدوث التنازع وتقبله مادام المؤمنون المتنازعون يحتكمون للخروج منه إلى معايير يستنبطونها في ضوء توجيهات الكتاب والسنة. وذلك من أمثال قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩ ﴾ (النساء: 59).

والمقصود برد التنازع إلى الله والرسول هو الاحتكام إلى القرآن والسنة من خلال (أولي الأمر) الذين يعلمون كيف يستنبطونه، والذين أجمع غالب مفسري الصحابة ومن جاء بعدهم على أن المقصود بهم ـ العلماء الربانيون ـ وليس الحكام والسلاطين ، وهو صنف من العلماء لم يظهر بعد عصر الصحابة ومازال إخراجه يشكل تحدياً للتربية الإسلامية.

وهذا يعنى أن القرآن ـ أيضا ـ يصنف التنازع والاختلاف إلى نوعين: نوع سلبي مدمر توجهه ثقافة العصبيات وقيمها، وهو ما نهي المؤمنين عنه. ونوع إيجابي توجهه تعليمات القرآن والسنة، وهو ما أقر المؤمنين عليه.

5- أهمية الاختلاف والتنازع في الاجتماع الإنساني:

الاختلاف والتنازع سنة من سنن الله في الاجتماع الإنساني، وسبب من أسباب التطور والتقدم الحضاري. والاختلاف يكون في الأفكار والقيم ، والتنازع يكون في تطبيقات هذه الأفكار وترجمتها إلى استراتيجيات وبرامج . ويتجسد الاختلاف والتنازع في الواقع الاجتماعي من خلال وجود القوى المحافظة والقوى المتطرفة .

ولكلا النوعين من القوى ضرورة اجتماعية وهدف من أهداف الخلق. وهو ما تشير إليه الآية التي مرت:

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ ﴾ (هود : 118-119).

حيث تعمل القوى المحافظة على توفير الاستقرار والأمن اللازمين للبناء والإنجاز الحضاري، بينما تعمل القوى المتطرفة على دفع حركة التقدم والتطور التي لا تحدث إلا من خلال هز الاستقرار وخلخلة الواقع القائم . لذلك من الخطورة أن تنفرد أي من القوتين في قيادة الحياة السياسية والاجتماعية، لأن انفراد المحافظين ينتهي بالمجتمعات إلى الآبائية والثبات المؤدي إلى الجمود والتخلف، بينما يؤدي انفراد المتطرفين إلى تسريع حركة المجتمعات بما يخالف سنن الاجتماع الإنساني ويصطدم مع قوانين البناء مما يؤدى على إهدار الطاقات وتبديد المقدرات . ولذلك يحتاج الأمر إلى توازن دقيق بين الطرفين وتعايش واع يجمع بين الاستقرار والحركة والنمو دون أن تتعرض جهود البناء والتحضر إلى الهزات العنيفة التي تقوض ما يتم إنجازه أو تحول دون ما يراد إضافته وينزع فتيل الاختلاف . ويحول دون انفجاره في ثورات دموية مدمرة. وتوفير هذا التوازن والتعايش هو مسؤولية الفريق الثالث: فريق المجددين الذين تنجبهم التربية التجديدية ويرشدون الفريقين السابقين إلى معايير الاختلاف والتنازع الإيجابيين.

6- التربية التجديدية والاختلاف والتنازع بين القوى المختلفة:

وأما عن ـ التربية التجديدية ـ اللازمة لتأهيل الناس للتكامل مع التحولات الجارية، فلأن الناس خلال هذه التحولات يحتاجون إلى تربية جديدة تزكيهم من (الأغلال) الفكرية و (الآصار) الاجتماعية التي تتسبب في حران (النخبة المحافظة) عن عبور المستقبل، ومن الانفعالات العمياء وردود الفعل الغريزية التي تدفع (القوى المتطرفة) إلى الاندفاع والتهور دون مراعاة سنن التاريخ وقوانين حركته، وذلك حتى يستطيع الجميع (التكامل) مع روح زمانهم ويرتقوا بواقعهم.

والمجتمعات التي تفتقر إلى هذه التربية التجديدية يفقد الناس فيها إنسانيتهم، ويعجزون عن (قراءة) تحديات زمانهم، و (يتكيفون) مع تحدياته ويستسلمون لمشكلاته ، ويتحولون إلى (أشياء) يحدث فيها التأثير من الخارج ويظلون متفرجين متأثرين غير مؤثرين، مفعول بهم غير فاعلين.

فالتربية التجديدية هي بوابة (المجتمع الجديد) المنفتح على التحولات الجديدة . والجهل أو تربية القولبة العقلية والإرادية هما النفق المظلم المؤدي إلى (المجتمع المغلق) المتدحرج في مهاوي التخلف والانهيار، ولذلك افتتح الله سبحانه وتعالى الوحي بـ (اقرأ) ولم يفتتحه بـ (صلّ) أو (زكّ) أو (جاهد) لأن كل صلاة أو زكاة أو جهاد أو أي عمل آخر لا يوجهه علم وتربية يتحول إلى عبادة طوطمية تقدس الرمز وتنسى المقصد ولا تأتى بثمرة نافعة.

ولذلك كان التأكيد النبوي على طلب العلم والقول بأن ساعة علم خير من عبادة سنة. لذلك فإن ما يحتاجه كل من (المجتمع المفتوح) للحفاظ على صحته، و (المجتمع المغلق) للخروج من أزمته هو - نظام تربية - قادرة على التجديد لإفراز روح خاصة قادرة على الوعي العميق بتطورات الحقبة التاريخية، وتتصف بالمرونة للتعامل مع أحداثها بعقلية ناقدة محللة لتناقضاتها، وبمهارات فاعلة مؤثرة في وقائعها، ومعارف واقعية مبصرة لحوادثها .

وتحتاج - التربية التجديدية والقوى المجددة - أن تبدأ عملها في مساعدة الناس في المجتمع إلى (الوعي) بطبيعة المراحل التي يمر بها مجتمعهم الذي بدأ يتحرك خلال الحقبة التاريخية الجارية ، وأن يعوا التناقضات التي تقوم بين القيم الجديدة التي تنشأ والقيم القديمة التي تفقد فاعليتها. إذ لما كانت الصلة قائمة بين الحقبة الآخذة بالأفول والحقبة الآخذة بالبزوغ، فإن القيم القديمة تقاوم تحول المجتمع خلال مراحل التحول المذكور، كما أن القيم الجديدة تصر على تقدمها وتعمل على كسب التأييد وصبغ الواقع الاجتماعي بصبغتها . أي أن عملية التحول تمر في مراحل تحتوي على اضطراب المد والجزر والتقدم والتقهقر طبقاً لمدى التوافق أو الاصطدام مع قوانين الحركة التاريخية. **وهنا تظهر أهمية التربية التجديدية وجماعة المجددين. فإذا لم تقم هذه التربية بمساعدة جميع الأطراف على فهم باطن التحولات الجارية والقوانين التي تحكمها، وتزكيهم من جمود القيم القديمة المتشبثة ببقائها، ومن**

خطأ الفهم المتطرف المشوّه للقيم الجديدة ونقائها، فسوف تجري التحولات الجارية بما يناقض قوانين التحول التاريخي، وتتسبب باضطراب المد والجزر الاجتماعي، وسوف (يتكيف) الناس لكل تقهقر بقنوط مأساوي وإحساس بالضياع والرعب العام، وهنا تنتصب مهمة المفكرين والمربين المجددين ليقوموا بوظائف ثلاث:

الوظيفة الأولى: تبصير أنصار القيم الجديدة بألا يهنوا ولا يحزنوا أمام تشبث القيم القديمة وما تسببه من اضطراب. لأن التقهقر وما يتخلله من أذى ، وإن أعاق الحركة أو شوهها، فإنه لا يوقف التحول ولا يشكل حركات إلى الوراء. وهذا هو أسلوب الوحي القرآني مع الرسول ﷺ وصحبه خلال المرحلة المكية.

والوظيفة الثانية: تحذير أنصار القيم القديمة من مغبة التشبث بها ومحاول إيقاف حركة التاريخ. لأن الأفكار والقيم والاهتمامات الجديدة التي تجري مقاومتها والضغط عليها من أنصار القيم القديمة خلال أزمان التقهقر سوف تصر على تقدمها حتى يتم استنفاد مصداقية الأفكار والاهتمامات القديمة التي فقدت فاعليتها، ووصول الجديدة إلى كامل تحقيقها. وهكذا كان الخطاب الإلهي للزعامة القرشية في مكة حين كان يحذرها من عواقب مقاومتها للدعوة الإسلامية، ويبشر من يتقون الخطأ والضلال بمنافع الإقبال عليها دنيويًا وأخرويًا.

والوظيفة الثالثة: ترشيد أنصار القيم الجديدة أنفسهم وبذل جهودهم لـ (يعوا) سنن هذه القيم ورسالتها الراحمة، وكيفية

إحسان التوافق معها حتى لا (يتطرف) المتطرفون ويحاولوا (تسريع) حركة التاريخ أو تغيير مسارها، لأن القيم الجديدة لا تتجسد في واقع الحياة إلا من خلال الوعي بسنن التاريخ ومراعاتها. ولا (يجمد) الآبائيون فيحاولون - إيقاف حركة التاريخ - وحث الطرفين على الصبر والمرونة واليسر وانتظار النتائج وهذا هو منهج الخطاب الإلهي للرسول ﷺ وصحبه في المرحلة المكية بأمثال قوله تعالى: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ (النحل: 1).

وكان حثهم على كف الأيدي مع الصبر الجميل، والصفح الجميل، والهجر الجميل، واتقاء الاصطدام بسنن الله وقوانينه وأوامره على المستويين الفردي والجماعي. والصبر الجميل صبر بدون تشهير أو تكفير أو فتن، والصفح الجميل صفح بدون تلاوم وتشفي، والهجر الجميل هجر بدون مهاترات إعلامية أو اختراع العيوب وتشويه السمعة.

7- أثر حركات التجديد في أمريكا وغرب أوروبا:

وفي العصر الحديث لعبت حركات التجديد والفلسفات التجديدية دورًا حاسمًا في كل من أمريكا وغرب أوروبا في منع انتشار الشيوعية وانتصارها بالمستوى الذي حققته في شرق أوروبا. ومثال ذلك ما كتبه الفيلسوف الإسباني - **جوسيه أورتيجا جاسيه** - خاصة في كتابه (ثورة الجماهير) الذي كتبت عنه مجلة - أتلانتك الشهرية - تقول: (إذا كان كتاب العقد الاجتماعي لروسو هو

كتاب القرن الثامن عشر، وكتاب رأس المال لكارل ماركس هو كتاب القرن التاسع عشر، فإن كتاب ـ ثورة الجماهير ـ للسنيور أورتيجا هو كتاب القرن العشرين).

ويقال إن أورتيجا هذا من سلالات مسلمي الأندلس المعروفين باسم الموريسيين. ومثل أورتيجا فلاسفة التقدمية ـ التجديدية الذين كان لهم الأثر الكبير في الولايات المتحدة الأمريكية.

وأهمية القوى التجديدية في غرب أوروبا وأمريكا الشمالية أنها نبهت القوى المحافظة في كلتا القارتين إلى خطورة التشبث بالداروينية الاجتماعية التي وجهت القيم السياسية والاجتماعية والاقتصادية في تلك الفترة، وبررت عمليات الاستغلال والاحتكار. كذلك خففت القوى التجديدية من غلواء (المتطرفين) الذين فسروا الداروينية الاجتماعية تفسيرًا مغايرًا يبرر عمليات الصراع والثورات الدموية، ثم طرحت قيمًا جديدة بما يناسب الحقبة التاريخية التي بدأت بمطلع القرن العشرين والتي وصفها ـ أورتيجا ـ بأنها حقبة ظهور قوة الجماهير. وبمقدار استجابة القيادات المحافظة والمتطرفة في أقطار غرب أوروبا وأمريكا الشمالية للفلسفات التجديدية بمقدار ما خفت التناقضات الجارية في هذه الأقطار وانتزعت فتائل الثورات الدموية المدمرة وفتح الطريق أمام التطورات السلمية، الأمر الذي حفظ للمجتمعات المذكورة قدراتها البشرية والمادية من الإهدار، وجعلها تتكامل وتتظافر للبناء والتقدم والإعمار.

وأما عن - البيئة الإدارية - التي تنزع فتيل خطر - التنازع -

وتمنعه من الانفجار في ثورات مدمرة وتترجم ثمرات التربية التجديدية إلى ممارسات تجديدية، فإن من الموضوعية أن نقول إن التطبيقات التاريخية برهنت على أن الديمقراطية الصحيحة - لا هياكلها وشعاراتها - هي الإطار الوحيد الذي يمكن أن تنجح فيه التربية التجديدية في إحداث التوازن بين القوى المحافظة والقوى المتطرفة وفي تحويل الاختلاف والتنازع إلى عامل بناء وتقدم، لأنها تحول دون تأثير جمود المحافظين، وتحفظ من تأثير غلواء المتطرفين مادامت أنها توفر للطرفين تبادل القيادة ومواقع التنفيذ وكراسي المعارضة وتعمل كصمام أمن فتهيئ لعزل كل طرف من مواقع النفوذ والتأثير حين تبدأ سياساته بإفرازاتها السلبية ووضع العقبات أو إحداث الهزات في مسيرة البناء والنماء الحضاري.

ومن الموضوعية أن نقول إن الممارسات الغربية - في أمثال بريطانيا وأمريكا وحتى في إسرائيل . قد جسدت تطبيق هذه المعادلة المتوازنة بين القوى المحافظة والقوى المتطرفة من خلال إتاحة الفرصة لكلا القوتين بتبادل الحكم والقيادات الإدارية، وجعل المرجعية في بقاء حكومة أي منهما أو إسقاطها ومحاسبتها أو تحديد مسؤولياتها وتقييم سياساتها وممارساتها إلى الناخبين أنفسهم، أو إلى من يمثلونهم في مجالس النواب والشيوخ والمحاكم الكبرى والإعلام الحر الناقد لا الإعلام المستأجر المصفق. إضافة إلى إلغاء المؤسسات الاجتماعية القديمة التي تفسد روح هذا

التطبيق كالعائلات والطوائف التي تقوم على روابط الدم وكفّها كفًا تامًا عن التأثير في العمليات الديمقراطية، واستبدالها بعائلات وطوائف جديدة تناسب العصر وحاجاته وتحدياته كعائلات العلماء وطوائف المهندسين وطوائف المحامين وطوائف أو روابط الأطباء. فهذه التطبيقات هي التي هيأت - في بريطانيا مثلاً - لحزب المحافظين أن يتعايش مع حزب العمال وأن يتظافر الاثنان لمصلحة بريطانيا كلها، وهي التي هيأت للحزب الجمهوري المحافظ أن يتعايش لمدة قرون مع الحزب الديمقراطي وأن يتعاونا في الولايات المتحدة الأمريكية. وهي التي تهيئ - الآن - لحزب الليكود أن يتعايش ويتكامل ويتظافر مع حزب العمل في إسرائيل، وأن يتفقا في (الأهداف والغايات) ويختلفا في (الوسائل والممارسات) دون أن يشتم حزب الحزب الآخر، أو يدخل في صراع دموي معه - إلا ما كان من اليهودي ذي الأصل اليمني العربي الذي قتل إسحق رابين - واعترضت زوجة رابين على إطلاق صفة الخيانة عليه أو منعه من ممارسة حقه الانتخابي!!

8- التوجيهات القرآنية وحركات التجديد المعاصرة:

وحين نقارن الممارسات الغربية المذكورة بالتوجيهات القرآنية التي عرضناها في مطلع هذا الفصل والتي توجه إلى الشورى الجادة وليس الاستشارة المظهرية نجد أن هناك تطابقًا في المبادئ والأصول وبعض الاختلاف في التطبيقات. أما عن جوانب التطابق والاتفاق

فهي تتمثل بالاعتراف بالاختلاف والتنازع واحترام إنسانية القوى التي تجسده، ثم العمل على إقامة التوازن بين الأطراف المتنازعة وتوفير حركاتها كاملة في الاختلاف والتنازع دون أن يؤدي ذلك إلى المواجهات الدموية العنيفة المؤدية إلى تخريب الإنجازات وهدر الطاقات وتبديد المقدرات. ثم اعتماد الفكر الموجه للأمة وتطبيقاته في المعتقد الأيديولوجي والتشريعات الحكومية ليكون المرجعية والمعيار لإحداث التوازن عند الاختلاف والتنازع. ومن الطبيعي أن تنسحب موافقة التوجيهات القرآنية مع الممارسات الغربية التي تحدث التوازن المنشود وإلى استحسان المؤسسات التي تمارسها مثل انتخاب القيادات وإدارات التنفيذ ومراقبتها ومحاسبتها واستبدالها وعزلها لأن ما لا يتحقق الفرض والواجب إلا به هو فرض وواجب كذلك، خاصة وان العدل هو مراد الرسالات الإلهية كافة وهو ما يتضح جليًا عند قوله تعالى:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ (الحديد: 25).

ولكن الاختلاف يكمن - فقط - في تطبيقات المرجعية التي يرجع إليها عندما يتجاوز المحافظون والمتطرفون خطوط التوازن ويهددون مسيرة البناء، ففي حين يكون الشعب المؤمن بالديمقراطية والدساتير المشتقة من فلسفاتها هما المرجعية والمعيار، فإن المرجعية التي يوجه إليها القرآن الكريم هي جماعة المفكرين والعلماء وعامة المؤمنين بالإسلام، وأما المعيار فهو فهم - أي فقه - هذه

المرجعية لنوعين من الآيات: آيات الكتاب وتطبيقاتها النبوية، وآيات الآفاق والأنفس ومشاهداتها العقلية والحسية.

9- التربية التجديدية والمجتمعات العربية المعاصرة:

غير أن الاتجاهات السائدة في الأقطار العربية والإسلامية المعاصرة لا تنتمي إلى المفهوم الإسلامي ولا إلى المفهوم الغربي لأن المرجعية هي مشيئة راس الدولة، والتطبيق هو أفعاله المعصومة التي لا تناقش. وهذه كلها اتجاهات تعتمد في قلبها وقالبها على الأعراف والتقاليد التي ابتكرتها العصبيات القبلية والطائفية وتجذرت في عصور الجاهلية ثم استعصت وتحدرت مع التاريخ الإسلامي بعد أن تزيت بزيه ورفعت شعاراته. ولذلك يتجسد الاختلاف والتنازع في العداوات المتبادلة التي تعد من أجلها جميع أنواع الأسلحة الكلامية والمادية. لذلك لا مجال ـ في هذه العصبيات ـ للتوازن بين القوى المحافظة والقوى المتطرفة، ولا مجال للتعايش وتبادل مواقع المسؤولية والقيادة. فكل طرف يزعم أن لديه الشرعية المطلقة والصواب المطلق والفضيلة المطلقة والأمانة المطلقة التي لا يجوز محاسبتها أو حتى السؤال عنها، في الوقت الذي يتهم الطرف الآخر بالجهل المطلق والخطأ المطلق والرذيلة المطلقة والخيانة المطلقة، فالحوار ممنوع والتواصل إما مدحًا أو هجاء، الأمر الذي يغلق جميع مسارب التفاهم السلمي في أي ـ تنازع ـ ولا يبقي إلا حلاً واحدًا يتجسد في المطاردات والاعتقالات والمحاكمات

والحملات الإعلامية من طرف، والتآمر وتحريك الفتن والانفجارات الانفعالية والتخطيط للثورات والانقلابات العسكرية أو الوظيفية من طرف آخر.

لذلك كان من أبرز مسؤوليات التربية التجديدية التي نتطلع إليها أن تعمل على تربية الفريقين: فريق المحافظين وفريق المتطرفين - منذ مرحلة المهد حتى اللحد - على فهم الاختلاف والتنازع وممارساتهما ممارسة حضارية تؤدي إلى التوازن الاجتماعي والتناسق مع سنن التطور وحركة التاريخ وقوانين بناء المجتمعات ونشوء الحضارات.

كذلك تحتاج حركات الإصلاح إلى بلورة الفقه اللازم لممارسة الاختلاف والتنازع بأصولها القرآنية والنبوية وتطبيقاتها الحضارية. وبذلك تهيئ قواعد واضحة مقبولة للتعايش مع مختلف الحكومات والقوى التي تختلف معها خصوصًا وأن القرآن الكريم والسنة النبوية تبينان بوضوح على أن الاختلاف في المعتقد والاتجاه لا يجوز أن يتطور إلى المدى الذي ينال من حرمات الإنسان ويعتدي على حقوقه في العيش والإقامة وحرية التملك والاختيار في التفكير والتعبير.

وتحتاج الحكومات والأحزاب والجماعات العاملة في ميدان البناء والإصلاح وفي خطوط المواجهة أن تكون صريحة وجريئة وأن تبدأ من معرفة الذات وإعادة تقييم الأفكار والقيم والعادات والتقاليد السائدة لأنها هي التي تقع في (دائرة التأثير) التي تملك سيطرة مباشرة عليها. لقد أفسدت تطبيقات هذه التقاليد في

السياسة والاجتماع كل المشروعات ومحاولات البناء، وتسببت - خاصة في العقود الخمسة الماضية - في تبديد الطاقات وإهدار الموارد - خاصة الموارد البشرية - حيث تسببت ومازالت تتسبب في هذا النزيف البشري المستمر المتفجر من شرايين المجتمعات العربية والإسلامية والذي يصب في أقطار الأرض كلها.

إن أزمة العرب والمسلمين المعاصرين أنهم لم يتعدوا مرحلة الأسر والقبائل الرعوية. فمنذ بدء الوجود الإنساني حاول الناس تنظيم أنفسهم في جماعات بدأت بالأسر والقبائل والتجمعات المحلية، ثم انتقلت إلى الدول والأمم، حتى انتهت في الوقت الحاضر - بالكتل القارية - العالمية. ولقد استعملوا لهذا التنظيم طرقًا تحدد حياة الجماعة وعلاقاتها بالجماعات الأخرى. كذلك عملوا على تطوير العالم الذي وجدوه ليتمكنوا من العيش فيه. وخلال هذا العمل تداخلت المظاهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية والمعرفية مع مجرى التطور الإنساني وتناسقت مع متغيراته، وتجاوبت مع حاجاته وتحدياته.

ولكن العرب والمسلمين من غير العرب الذين دخلت عصبيات العرب بلادهم مع الفتح الإسلامي انحسرت من حياتهم - التقاليد الإسلامية في التفكير والحوار - بانحسار التربية الإسلامية، وظلت هوية العصبيات الأسرية والقبلية والطائفية ومهاراتها في الفخر والهجاء وتطبيقاتها في الميادين السياسية والإدارية والعسكرية والاجتماعية والمعرفية والتي تنذر بإفلاس هذه الأقطار وتفريغها من البشر والحيوان والنبات.

والتربية هي الميدان الذي يجب أن يبدأ فيه تغيير هذه الاتجاهات والممارسات. لأن في مؤسسات التربية القائمة ومناهجها وأساليبها تبدأ جميع هذه السلبيات. ففيها يعمل - المنهاج المستتر - على إرضاع الناشئة في سن مبكرة اتجاهات العصبية القبلية واختلافاتها ومنازعاتها المسلحة في العصر الجاهلي، وأشعارها التي أذكت هذه المنازعات بالفخر والهجاء وشعر المعلقات وإمداداته في العصر الإسلامي. وفيها يبدأ تدريس تاريخ منازعات الأسر وحروبها من أجل الجاه والنفوذ في كل من العصر الجاهلي والعصر الإسلامي، وفيها تلقن التقسيمات العرقية التي قسمت المجتمع إلى سادة وعبيد في العصر الجاهلي، وإلى عرب وموالي ومماليك وإماء في العصر الإسلامي. وفيها تلقن الحقيقة الواحدة المطلقة، والصواب المطلق، والعدل المطلق الواحد في جانب، والمروق المطلق والزندقة المطلقة والخروج المطلق في جانب آخر، وفيها تلقن أساليب الحوار القائم إما على الاعتذار والعفو عند المقدرة أو الإصرار والسيف والنطع. وفيها تجري قولبة العقول والإرادات وإشاعة (ثقافة الصمت) و(هوية القطيع) ومهارات (الاستماع والتنفيذ). وما لم يبدأ التغيير من المنابع التربوية فلن تتغير محتويات الروافد التي تجري منها وتصب في ميادين الحياة السياسية والاقتصادية والإدارية والعسكرية والاجتماعية والعلمية والثقافية والفنية وغير ذلك لأن هذا هو الذي يتفق مع بصائر القرآن التي تقرر أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

سنن التحول التاريخي والتناقضات الجارية في (المجتمعات المغلقة) في الأقطار العربية والإسلامية

1 ـ خطورة غياب المدرسة الفكرية:

في ضوء السنن التاريخية والاجتماعية التي سبقت مناقشتها، يمكن أن نستعرض ما حدث للمجتمعات العربية التي نشأت في العصر الحديث بعد ضعف الدولة العثمانية وانهيار (المجتمع المغلق) الذي حافظت عليه لقرون. لقد أخذت هذه المجتمعات تدخل حقبة مليئة بالتحديات والمشكلات دون أن تصاحبها حركة تربوية ـ تجديدية مناسبة في النوع والكم، واعية بطبيعة القيم المتصارعة خلال هذه الحقبة والتناقضات المصاحبة لهذا التحول، وتؤهل إنسان هذه المجتمعات لـ (التكامل) مع تحولات الحقبة الجديدة بفاعلية مؤثرة. ولذلك بدأت هذه المجتمعات في المرحلة الأولى للحقبة الجديدة باستيراد الحلول والمعالجات من (ثقافات) المجتمعات الأخرى وراحت (تتكيف) طبقاً لما يمليه أصحاب هذه الثقافات

الغربية[1]، وما يتفق مع عصبياتها الضيقة المحدودة الأمر الذي أدى إلى عجز كل من (النخبة والجماهير) عن فهم واقعها وتحليله وطرح الحلول اللازمة لتلبية حاجاته ومجابهة تحدياته وحل مشكلاته. ولذلك عاشت النخبة بشكل معزول ومفروض فوق هذا الواقع، بينما غرقت الجماهير فيه وترسبت في أعماق التطور الجاري.

ومن الإنصاف أن نقول إن نواة ـ حركة تربوية ـ تجديدية ـ تشكلت ومثلتها جيوب فكرية متناثرة هنا وهناك؛ منها: الجيب الإسلامي الذي بدأه الشيخ محمد عبده بعد أن انسحب من العمل السياسي الذي كان يمارسه بصحبة أستاذه جمال الدين الأفغاني، وأسس مع تلميذه الشيخ محمد رشيد رضا مدرسة المنار التي نشطت في توجيه الفكر الإسلامي الحديث، ومنها ـ الجيب القومي الذي بدأه الأستاذ زكي الأرسوزي وساطع الحصري ونظائرهما في العراق والشام، ومنها الجيب الأدبي الذي بدأه أحمد لطفي السيد وطه حسين ومصطفى صادق الرافعي وعباس محمود العقاد، ومنها الجيب الشعري الذي بدأه البارودي وشوقي وأمثالهما...، وجيوب أخرى هنا وهناك. ومع مآخذنا الكثيرة على أغلبية هذه الجيوب إلا أنها كانت وليدًا لو قدر له النضج لتوافق مع سنن التجديد ولتجسرت الفجوات القائمة بين فرقائه،

(1) من الرؤوس البارزة للاستيراد الثقافي - الدكتور محمد أركون، انظر في تاريخية الفكر العربي الإسلامي، بيروت: الإنماء القومي، 1986.

ولتكاملت أجزاؤه. ولكن هذا الوليد تم إجهاضه قبل الأوان. حيث تحول إلى أحزاب وجماعات بعضها يمثل فريق المحافظين، وبعضها يمثل فريق المتطرفين. وراح كلا الفريقين يمارس الاختلاف والتنازع بأساليب جاهلة بسنن الاختلاف والتنازع، الأمر الذي أحال هذين الاختلاف والتنازع المحرومين من إرشاد المدرسة التجديدية إلى صدمات وفتن وانقلابات عسكرية [1].

2- ظهور النخب اليسارية والأبائية:

وخلال عقدي الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين الحالي اشتدت حدة التناقضات الجارية في المجتمعات العربية وبرزت حاجات اقتصادية ومشكلات سياسية وتحديات عسكرية جديدة. ولم يكن بقدرة (النخبة المحافظة) الحاكمة إبقاء الجماهير، التي هزتها شدة تناقضات التحديات والمشكلات الجديدة، غائبة غارقة في أعماق الواقع العاجز المهزوم. ومرة أخرى لم تزدهر حركة (تربوية ـ تجديدية) مبصرة، ولذلك أفرزت هذه التجمعات (نخبتين) جديدتين متطرفتين: نخبة يسارية، ونخبة آبائية. وخلال الصراع مع (النخبة المحافظة) الحاكمة استطاعت النخبة اليسارية بمساعدة القوى الخارجية التي استوردت حلولها من ثقافاتها، تقويض النخبة المحافظة في عدد من الأقطار وتكوين عصبيات نخبوية تربعت فوق واقع المجتمع ودخلت في مواجهات

(1) حسن حنفي، من العقيدة إلى الثورة، بيروت المركز الثقافي، 1988.

ساخنة وباردة مع (النخب المحافظة) الحاكمة في الأقطار العربية والإسلامية الأخرى، وأعطت تفسيراتها لموضوعات الدولة، والحكومة، والشعب، والحاكم، والحرية، والسلطة، والإدارة، والثقافة، والملكية الاقتصادية، والممارسات السياسية، والعلاقات الاجتماعية، والانتماء الحضاري، والتراث التاريخي.

وخلال المعركة التي دارت بين (النخبتين). وقفت الجماهير الشعبية عاجزة عن وعي التحول الجاري ونقده وتقويمه. ولذلك تقاذفتها قوة التناقضات المناضلة، وبدأ الناس يسقطون في صراعات العصبيات النخبوية المحافظة واليسارية. والعصبيات تكون في العادة انفعالية غير عاقلة، عمياء غير مبصرة، متعجرفة غير منطقية، أنانية ضد الصالح العام، عدوانية ضد التفاهم، فالعصبيات مواقف متخلفة سواء أكانت صادرة عن المحافظين أو اليساريين أو المتطرفين الدينيين. والمتعصب النخبوي لا يعمل شيئًا مفيدًا لأنه عاجز عن فهم الواقع، وفاقد للمحبة والإيثار، ولأنه يحتقر أفكار الآخرين وممارستهم، ويحاول أن يفرض أفكاره وأعماله على كل واحد سواه. وهنا يكمن عشقه للشعارات التي تعميه عن الواقع وتبقيه أسير الأوهام وأنصاف الحقيقة.

والمتعصب سواء أكان يمينيًا محافظًا، أو يساريًا تقدميًا، أو متطرفًا دينيًا يرى نفسه الصانع الوحيد للتاريخ ومحركه ومالكه، ويعمل على فرض قناعاته على (الأكثرية) وتحويلها إلى قطعان بشرية مجردة من التفكير. والاختلاف الوحيد بين المتعصب

المحافظ والمتعصب اليساري هو أن الأول يرغب في إيقاف حركة التاريخ بينما يحلم الثاني في تسريعها وتوجيهها بما يخالف سنن التاريخ وقوانين الاجتماع الإنساني. والمتعصب لا يهتم بالشعب إلا باعتباره أداة لتنفيذ أهدافه. وهو يخاطب الشعب بالعواطف والبلاغة اللغوية، ويحشدهم بالدعاية والإثارة لتحقيق رغباته. والمفروض - عند المتعصب - أن جماهير الشعب لا تفكر وإنما يفكر لهم إنسان آخر، يعيشون كالأطفال تحت حمايته وسلطانه. لذلك لا يستطيع المتعصبون، - سواء أكانوا محافظين أم يساريين أم متطرفين دينيين - القيام بحركة تحرير حقيقية لأنهم أنفسهم ليسوا أحرارًا.

وجميع هذه السلبيات التي تتصف بها عصبيات (النخبة) تجسدت بشكل أو بآخر في العصبيات المحافظة واليسارية التي شاهدتها مجتمعات الأقطار العربية والإسلامية خلال عقود الخمسينيات الميلادية حتى الثمانينيات، وامتحنت مفاهيم النخبتين وشعاراتهم وأنظمتهم ففشلت فشلاً ذريعًا أمام الحاجات الداخلية والتحديات الخارجية. وبلغ هذا الفشل ذروته في مطلع عقد التسعينيات الذي شاهد وفاة شعارات ومشروعات المحافظين واليساريين سواء، وانتهى الأمر بالمجتمعات العربية والإسلامية إلى ضياع في الهوية وضياع في الحاضر والمستقبل [1].

(1) د. على الوردي، مهزلة العقل البشري، لندن: دار كوفان، 1994.

3- عجز الصحوة الإسلامية عن فهم سنن التحول التاريخي:

وبرز ما سموه بـ (الصحوة الإسلامية). ومع أن هذه الصحوة بدأت في عقود الثلاثينيات من القرن العشرين التي شاهدت سيطرة (النخبة المحافظة) ثم عبرت العقود التالية التي شاهدت سيطرة (النخبة اليسارية، إلا أن شعبيتها ـ التي أكسبتها هذا الاسم ـ برزت واضحة خلال عقدي الثمانينيات والتسعينيات بسبب فشل النخبتين: المحافظة واليسارية سواء. وتشير النشاطات الجارية والممارسات التي تقوم بها جماعات الصحوة الإسلامية في الوقت الحاضر إلى أن هذه الجماعات تتصف بصفتين: صفة إيجابية، وأخرى سلبية. أما عن الصفة الإيجابية فهي سلامة هذه الجماعات من (الاغتراب الثقافي) الذي يستورد الحلول من مجتمعات وثقافات خارجية تختلف عن واقع المجتمعات العربية والإسلامية وثقافاتها. فهم ينتمون إلى مسار (الحقبة التاريخية) لهذه المجتمعات التي يكمن في تراثها أصول الحاضر وتحديات المستقبل. وأما عن الصفة السلبية فهي تكمن في تبني جماعات الصحوة نفس منهاج العمل الذي اعتمدته كل من النخبتين: المحافظة واليسارية، والقائم على إفراز (نخبة) إسلامية تفرض (فهمها) للإسلام على الآخرين وتطلب منهم التبعية دون حوار، وتحاول تسريع حركة التاريخ، ودون أن تطور مدرسة تربوية ـ تجديدية واعية بتحديات العصر ومشكلات الواقع وحاجات الحاضر، وقادرة على إنزال (آيات الكتاب) على الواقع القائم، والنظر في (الآفاق والأنفس)

نظرًا علميًا يبلور مختلف علوم المعرفة اللازمة لتجديد (غايات) العمل الإسلامي وتجديد (وسائله ومؤسساته). ويطلق القرآن الكريم على العمليتين معًا اسم (تعليم الكتاب والحكمة) ويدرجهما في الميادين الرئيسية للعمل الإسلامي والجهاد الدعوى.

لم - تطور جماعات الصحوة الإسلامية - المدرسة التجديدية - التربوية المنشودة، وإنما اقتصرت على جهود الأفراد الذين ينمون أنفسهم بجهودهم الفردية، وتفرزهم الصدف والتلقائية، ليخاطبوا العواطف الدينية ببلاغة (الموعظة) التي تنوعت بين (الحسنة) و (غير الحسنة)، وافتقرت إلى تنمية (الوعي الناقد) المحكم الذي يسميه القرآن الكريم (الجدال الأحسن) أي الأحسن اطلاعًا ومعرفة من معاصريه. ولذلك لم تبلور جماعات الصحوة مشروعًا نهضويًا ومناهج نافعة في تربية (الأكثرية) وتمكينها من استرجاع إنسانيتها، وتنمية القدرات العقلية والإرادية اللازمة للمشاركة الفاعلة المؤثرة في تحمل مسئولياتها، والاشتراك في تقرير مستقبلها، وصنع القرارات المتعلقة بمصيرها، وإنما راحت تتوسل إلى عواطفها بعدد من اليافطات الدينية والشعارات الإصلاحية، لتساعدها على تسلم السلطة من خلال الإدارات التنفيذية والانتخابات النيابية، الأمر الذي انتهى بها إلى الدخول في مواجهات باردة وساخنة مع (النخب) الحاكمة المحافظة واليسارية سواء.

كذلك فرضت - جماعات الصحوة الإسلامية - التبعية وعدم الحوار داخل صفوفها بين القيادات والأعضاء، قاعدتها في ذلك

المقولة التي تشترط المبايعة على الطاعة في المنشط والمكره، وهذه علاقة أوقعت تنظيمات الصحوة في علاقات (النخبة) و(القطيع) وجعلت جماعات الصحوة عرضة للانفجار والتمزق والانشطار والنزيف البشري في داخلها، وسهلت مهمة المتربصين بها من القوى الدولية الخارجية لاستدراجها إلى مزالق الصراع السياسي مع السلطات الحاكمة واقتراف ما يجانب الحكمة ويوقع في التهور.

4- مسؤولية نظم التربية العربية:

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: **ما هي العلاقة بين نظم التربية التي شاهدتها المجتمعات العربية في تلك الفترة وبين حركات الإصلاح التي استعرضناها؟**

الجواب: لقد شكلت نظم التربية المذكورة المحاضن التي تدربت فيها (النخب) والأحزاب والجماعات على التنازع المسلح والاختلاف المتصارع. فهذه النظم التربوية كانت ومازالت جاهلة بنسيج المحتوى الدراسي الذي تدرسه. فهي لا تعي أن هذا النسيج يتكون من الوقائع المثبتة والفرضيات والمسلمات والتفسيرات والآراء والمصطلحات وقواعد الحكم الأخلاقي والشرائع المعيارية والوعي بهذه العناصر يتطلب أجواء من التسامح وتقبل الاختلاف ولكن جهل النظم التربوية بهذا النسيج الفكري يجعلها تقدمها للناشئة باعتبارها كلها وقائع مثبتة لا تقبل النقاش، ولذلك لم تتسامح من حيث مناهجها ومحتوياتها الدراسية، كما لم تتسامح

إزاء طاقاتها البشرية. فإذا تولى إدارة هذه المؤسسات وزراء ومديرون ومديرات من القوى المحافظة منعت دراسة وتدريس أفكار القوى المتطرفة واضطهدت ممثليها وأبعدتهم وعطلت فاعليتهم الوظيفية ثم قربت عناصرها وأسلمتهم الإدارة والتدريس، ومثلها إذا انتقلت الإدارة إلى القوى المتطرفة. فالانقلابات التربوية سواء في المناهج أو الإدارة والتدريس كانت ومازالت تمارس في المؤسسات التربوية وتدرب خريجيها على هذه الانقلابات وتشحنهم باتجاهاتها وتهيؤهم لممارستها في مواقع عملهم المستقبلي سواء أكانت اقتصادية أو عسكرية أو سياسية، ثم تكون المحصلة النهائية هي هدر الطاقات وبعثرة المقدرات ثم الفشل والإفلاس.



حاجة المجتمعات العربية إلى حركة تربوية ـ تجديدية تنقلها من (المجتمع المغلق) إلى (المجتمع المفتوح)

1- وظيفة الحركة التجديدية:

في ضوء ما مر يتبين أن أهم ما تحتاجه المجتمعات العربية والإسلامية هو حركة تربوية ـ تجديدية تعي التحولات التي تجري خلال (الحقبة الزمنية) التي تمر بها ثم (تتكامل) مع قوى التنفيذ والإدارة لبلورة الاستراتيجيات التي تتطلبها تحديات الحقبة وحاجاتها، والتكتيكات المرحلية التي تفرضها مرونة المتغيرات المحيطة، وتربي جماهير (الأكثرية) لتنهض بمسئولياتها ولـ (تتكامل) مع العالم المحيط بما يجسد إنسانيتها ويحررها من (ثقافة القطيع) ويؤهلها للتفكير الناقد والقرار المستقل بدل (الإبائية) و (العصبيات) المحلية التي تروضها لـ (التكيف) لتحديات الواقع والإذعان لضغوطه ومشكلاته.

وهذا هو جوهر التوحيد الذي جاء به الإسلام وعكسه هو الصنمية. ولذلك كان محور دعوة الرسول ﷺ هو تحرير الإنسان من (أغلال) العصبيات و(آصارها) ومعتقداتها وولاءاتها وثقافتها وعاداتها وتقاليدها، فلما شفوا من أغلال هذه العصبيات انتصبوا ليرسوا أسس الحضارة الإسلامية العالمية. وبمقدار التزام القائمين على مسيرة هذه الحضارة بالأسس الراشدة أو الابتعاد عنها سارت الحضارة الإسلامية فيما بعد ازدهاراً وركوداً وجموداً.

2- مبادئ تراعى في التجديد:

ولتقوم الحركة التربوية - الفكرية - التجديدية المنشودة بإرجاع إنسانية الإنسان العربي والمسلم الحديث، ولتنهض بهذا الواجب لا بد من طليعة فكرية واعية تراجع موروثاتها الفكرية والاجتماعية والسياسية وتنظر لهذه الموروثات من خارجها وباطنها وتلتزم بالمبادئ التالية:

المبدأ الأول: خطورة العصبيات النخبوية :

من الصفات البارزة التي يجب أن تتوفر في المدرسة الفكرية المنشودة صفة الوعي العميق بمخاطر (العصبيات النخبوية). فالمجددون علماء تربويون، عارفون بقوانين التاريخ وسنن المجتمعات، ينتشرون في مؤسسات التربية والثقافة، وفي أوساط الأمة نخبة وجماهير ليقوموا بأمرين:

الأول: تربية الجماهير واستنقاذها من (ثقافة القطيع) و (مدجنات) العصبيات الحزبية والطائفية والمذهبية والإقليمية والقبلية، وإعادة إنسانيتها الراقية القادرة على صنع قياداتها والمشاركة في مناقشة أعمالها وتقييمها[1].

والثاني: هو تطوير خطاب خاص للمرشحين من النخب القوية لتسلم الحكم والقيادة لتزكية من لديهم قابلية الشفاء من (الطغيان) ومرض (انتفاخ الشخصية أمام الأقرباء وتقلصها أمام الغرباء)، وللارتقاء بإراداتهم إلى درجة التقزز من وجود (نخبة طاغية) تتربع فوق الأكثرية وتفرض عليها أفكارها وتجردها من إرادتها وتفكيرها، والارتقاء بعقولهم إلى درجة (الوعي) بأخطار انقسام أي مجتمع إلى (نخبة متسلطة) وجماهير (مدجنة)؛ لأن هذا الانقسام يضر بالنخبة والجماهير سواء: يضر بالنخبة دنيويًا لأنه يمدها برعايا منافقة ضعيفة لا تحسن إلا التملق والتوسل والتذلل، وبجيوش من العسكر لا تحسن إلا الهزيمة أمام الأعداء والتنكيل بالأصدقاء، وبأفواج من الموظفين لا يحسنون إلا التعالم والكسل والعجز والفشل، الأمر الذي يهزم النخبة أمام التحديات الداخلية والأخطار الخارجية، ويذلهم أمام أقرانهم من القيادات العالمية ويلحق بهم الصَغَار في الحاضر والخزي والعار في التاريخ والعقوبة من الله في الآخرة. أما أن الانقسام إلى نخبة متسلطة وجماهير

---

(1) قباني، عبد العزيز، العصبية بنية المجتمع العربي، (بيروت: دار الأفاق الجديدة، 1417هـ - 1997م)، ص 195-222.

مدجنة يضر بالجماهير فلأنه يحولها إلى قطعان بشرية مدجنة تؤمر فتطيع، وتسمع فلا تناقش، وتهان فلا تحس، وبالتالي فإن هذا الانقسام يكرّس الضعف ويخلّد التخلف وينتهي بالأمم إلى الدفن في متاحف التاريخ.

المبدأ الثاني: صفات المجدد وأخلاقه:

الإنسان المجدد إنسان محب للإنسانية، متواضع، يؤمن بالحوار والاقتناع، ويرفض الانفعال والعنف، ويخضع أعماله للتفكير والنقد الواعي، ولا يرفض حق الآخرين في التفكير والاختيار، ولا يحاول أن يفرض اختياراته عليهم، ولديه القدرة على تحليل مواقفهم وأعمالهم وتحليلاً موضوعيًا.

والمجددون يقنعون بصواب موقفهم ولكنهم يحترمون حق الآخرين في أن يعتبروا أنفسهم على صواب كذلك. ثم هم ينتظرون وإياهم لتثبت التطبيقات العملية من هم على صواب، ومن الذين يملكون المناعة ضد أسباب الفشل والتخلف. وهذه هي الخليقة الإلهية وهو يحاور الكافرين به:

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ (الأعراف: 53).

والتأويل المقصود هنا ـ كما فسره ابن تيمية وغيره ـ ما تؤول إليه الأقوال من تطبيقات عملية وأفعال. كذلك يوجهنا الوحي إلى ألا نستغرب إنكار الآخرين لأفكارنا ومخالفتهم لها وتكذيبها

قبل أن تتحول إلى ممارسات عملية تكشف عن صوابها أو خطأها:
﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (يونس: 39).

والمجددون لا يقصرون حق التمتع بـ (الإنسانية) على الرجال دون النساء، ولا على الغني دون الفقير، ولا على المؤمن دون الكافر، ولا على الصديق دون العدو، ولا على الكبير دون الصغير، ولا على العظيم دون الحقير، ولا يستنكرون على أي إنسان مهما يكن جنسه أو دينه أو مذهبه أو طبقته أن تجسد (إنسانيته) بحق التفكير وحق التعبير وحق الاختيار. فالاعتداء على هذه الحقوق هو إساءة بالغة لإنسانية الإنسان يستنكرها المجددون - خاصة الإسلاميين الأصلاء - ويجاهدون ضدها بكل ما يملكون. فالإكراه مدان من المجددين الأصلاء، مرفوض حتى لو كان في المعتقد والدين لأنهم يوقنون بأن من يحسن تبيان الحق ويحسن قذف الحق على الباطل يثق بدينه ويطمئن إلى انتصاره، ولأنهم يؤمنون بفطرة الإنسان المفطورة على عشق الحق والبحث عنه والاستشهاد في سبيله إن وجد المجددين الذين يجددون له فطرته ويزكونه من غفلته.

والمجددون لا يحاولون سحق خصومهم وإنما يحاولون إقناعهم وتحويلهم لمناصرة أفكارهم والعمل معهم. صحيح أن للمجددين الحق في الوقوف ضد اعتداء الآخرين الذين ينتهكون حرماتهم

ويحاولون باسم الحرية إسكاتهم وذبح حرياتهم، إلا أنهم لا يستفزون الخصوم ولا يتوعدونهم ويظلون يمدون جسور التفاهم معهم، وإذا ظهروا عليهم عفوا عنهم وسامحوهم وقالوا لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء! ثم فتحو الأبواب مشرعة لمن يتبدل منهم، وأسلموه القيادة - إن كان جديرًا بها - وصاروا له جندًا يطيعونه إن أطاع الله ويعصونه إن عصى الله. وهذا هو الموقف الذي اتخذه الرسول ﷺ وخليفتاه أبو بكر وعمر مع أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان والمغيرة بن شعبة ومعاوية بن أبى سفيان.

فالمجددون ليسوا طبقيين يعملون لتدمير (طبقة الطغاة) لتحل محلهم (طبقة العمال المستضعفين)، وليسوا نخبويين يعملون لإسقاط (النخبة الحاكمة) لتحل محلهم (النخبة الطامعة)، وإنما المجددون مصلحون يعملون لتحرير المظلومين من ظالميهم، وتحرير الظالمين من ظلمهم، ثم تحلية إنسانية الفريقين بـ (الوسطية العادلة) التي اغتصبتها (ثقافة الطغيان والاستضعاف).

والمبدأ الثالث: قدرة المجددين على التمييز والتشخيص:

إن المجديين يسترشدون بقوله تعالى:

﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ﴾ (آل عمران: 111).

وهم في هذا الاسترشاد يميزون بين (الضرر) - أو المرض الأساسي - وبين (الأذى) أو المضاعفات الجانبية للمرض - ثم يتوجهون لمعالجة المرض ولا يتلهون بمضاعفاته. و (الضرر) مرض أساسي، داخلي،

حقيقته تدمير إنسانية الإنسان وسلبه حرية التفكير وحرية الاختيار وتحويله إلى فريسة للصنمية والأصنام [1]. وهذا ما تتسبب به (ثقافات الطغيان والاستضعاف) التي تقسم الأمة إلى (نخبة متسلطة) متألهة و (أكثرية مستضعفة) مشركة. أما (الأذى) فهو إسراع الطامعين من الخارج لاستثمار آثار (الضرر) الداخلي وما يحدثه في الأمة من (طغيان) و (استضعاف) يعجزانها عن تحمل مسئولياتها وحل مشكلاتها وتلبية حاجاتها.

والمبدأ الرابع: أو أهم المبادئ التوافق مع حركة التاريخ وسننه:

لا يعتبر المجددون أنفسهم مالكين للتاريخ، ويوقنون أنه من المستحيل أن يعمل أحد على وقف حركته أو تسريعها ودفعها قبل أوانها أو تحويل مسيرتها دون عقوبة. لذلك (يعي) المجددون كيفية المشاركة في (الحقب التاريخية) و(يفقهون) مظاهر (حكمة التخطيط اللازم لمعالجة التناقضات التي تحدث خلال مسار الحقبة التاريخية ويتعاملون معها طبقًا لسننها وقوانينها. وهم يحسنون وعظ (جماهير) الأغلبية وأفراد (النخب القوية) سواء، و (يجادلون) النخبة المثقفة ـ المفكرة بأحسن مما عندها خلال التقلب بين التناقضات المذكورة ليستعيد جميع هؤلاء إنسانيتهم ويشاركوا في حمل مسئولياتهم.

---

(1) للوقوف على معنى الصنمية ومحتوياتها وتطبيقاتها راجع ـ كتاب الصنمية والأصنام في ثقافة العصبيات المعاصرة ـ للمؤلف.



الباب الرابع

الخلاصة والتوصيات



يتعرض الإنسان العربي منذ قرن من الزمان لمؤثرات اجتماعية وعمليات تربوية ثقافية تتضافر لإعاقته عن بلوغ مرحلة النضج العقلي والانفعالي، وبذلك صارت أفعاله ردود فعل تلقائية للأحداث التي تتقاذفه والأزمات التي تفاجئه.

وانعكست هذه الإعاقة على الأمة فصارت عاجزة عن الوحدة والعمل الجماعي، وصار الآخرون يتصرفون بمصيرها دون أثر لها في تحديد هذا المصير أو تشكيله.

وليستعيد العربي المعاصر فاعليته وقدرته على مواجهة مشكلاته بنفسه واختيار استجاباته المقصودة - الهادفة، صار من الضروري أن تبدأ حركات الإصلاح والتجديد استراتيجية مرحلية تركز في المرحلة الأولى على الميادين التربوية والفكرية والثقافية بغية تحقيق الهدفين التاليين:

الهدف الأول:

تنمية فاعلية الإنسان العربي وذلك من خلال التدرج في نموه الجسدي والعقلي والعاطفي حتى درجة النضج الإنساني ابتداء من درجة الاعتماد على الغير حتى يبلغ درجة تبادل التعاون مع الغير متصفاً بالعادات الإيجابية لكل درجة طبقاً للترتيب التالي:

أولاً: درجة الاعتماد على الغير. (مرحلة الطفولة الجسدية أو العقلية).

ثانيًا: درجة الاستقلال عن الغير وعاداتها الإيجابية التالية:

1- القدرة على أخذ زمام المبادرة.

2- القدرة على التحديد العقلي للهدف وتطبيقاته.

3- إتقان ترتيب الأولويات في برنامج العمل.

ثالثًا: درجة تبادل التعاون مع الغير وعاداتها الإيجابية التالية:

1- أستفيد ويستفيد الآخرون.

2- افهم الآخرين ثم دعهم يفهمونك.

3- التعاون الجماعي.

4- المراجعة الدورية لمحتويات العادات الست.

والهدف الثاني:

تنمية الفاعلية عند الأمة وذلك من خلال تشكيل شبكة العلاقات الاجتماعية فيها لتراعي ما يلي:

1- بناء نظم التربية التجديدية القادرة على إشاعة (الوعي الذاتي) ومحاربة تربية القولبة العقلية وما ينتج عنها من شيوع الوعي الساذج و(عقلية النخبة المتسلطة).

2- إفراز المؤسسات التنفيذية والإدارية القادرة على توفير إشباع الحاجات الإنسانية ابتداء من الحاجات الفسيولوجية حتى درجة تحقيق الذات.

3- توفير أجواء الشورى - وليس مجرد الاستشارة - السليمة وإفراز القوى المجددة القادرة على دفع مسيرة التجديد وتحقيق صفة التوازن لتنازع القوى المحافظة والقوى المتطرفة.

4- مراعاة مبدأ الأصالة والمعاصرة في كل جوانب الإصلاح سواء فيما يتعلق بغايات الحياة أو الوسائل والمؤسسات بالشكل الذي تم تفصيله في هذا البحث لأن هذا هو وحده الكفيل بتفجير طاقات الفرد والجماهير وحسن استثمار هذه الطاقات في مواجهة الحاجات والتحديات.

ولتحقيق الهدفين المشار إليهما أعلاه يخلص البحث إلى التوصيات التالية:

التوصية الأولى: تركيز حركات الإصلاح والتجديد - في المرحلة القائمة - على (تزكية) نظم التنشئة والتربية العاملة في الأقطار العربية، وذلك بانتزاع - عملية التربية والتعليم - من الحكومات الرسمية وثروات الخصخصة التجارية ووكلاء العولمة الثقافية ثم المراجعة الجريئة الواعية لنظم التربية وإعادة النظر في فلسفاتها وأهدافها ومؤسساتها وميادينها والطرق والأساليب المتبعة فيها، ثم إعادة صياغتها هذه كلها لتكون قادرة على مواجهة التحديات وتلبية الحاجات القائمة في (الحاضر) دون أن تغترب في (ماضي الآباء) أو (حاضر الغرباء)!!

والواقع أن تزكية نظم التربية القائمة والثقافة الاجتماعية

السائدة وتركيز الجهود الجماعية لهذه المهمة أمر في غاية الخطورة لأسباب خمسة هي:

السبب الأول: أن نظم التنشئة الأسرية والتربية المدرسية والعادات الاجتماعية والممارسات الإدارية والأمنية والثقافة العامة تشكل عوامل إعاقة للنضج العقلي والانفعالي عند الإنسان الذي ينمو في ظل هذه النظم إلا ما ندر، فهي تثبت الأكثرية عند درجة - الاعتماد على الغير - وبذلك تسهم إسهامًا شديدًا في إشاعة **(ثقافة الصمت وعقلية القطيع)** الذي يؤمر فيطيع دون مناقشة أو تساؤل. والأقلية التي تتعدى - درجة الاعتماد على الغير - تقف عند درجة الاستقلال عن الغير ـ وهي درجة تؤهل الإنسان للتفوق الفردي والنجاح في التنافس ولكنها معوقة عن التعاون الجماعي، وبالتالي فهي تعيق بناء الأمة وتبقيها عاجزة عن القيام بمسئولياتها لأنها تبقي القيادات في تنافس وصراع على المراكز وتحول دون اجتماع كلمتهم على أمر، أو تنفيذ قرار وهو ما يميز القيادات السياسية والإدارية والاجتماعية في الماضي والحاضر.

وبسبب هذه الصفة السلبية كان التقرير القرآني لنفسية العرب المعاصرين للوحي:

﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ (الأنفال: 63).

وما لم تحكم التربية التجديدية مواجهة هذه العوامل المفرقة

وتهيئ لإنسانها النمو العقلي والانفعالي حتى بلوغ درجة النضج أي - درجة تبادل الاعتماد مع الغير - فلن يتهيأ لأي جيل أن يتعاون أفراده وللأمة أن تتحد قياداتها.

والسبب الثاني: أننا نعيش في عالم انهارت فيه الحدود الثقافية والفكرية والاجتماعية بفعل وسائل الاتصال والمواصلات التي تتطور كل يوم، وصار الناشئة في المجتمعات الإسلامية يشاهدون التقدم الهائل والتنظيم الرائع في ميادين العلم والتكنولوجيا والسياسة والإدارة والعسكرية وغيرها، ثم يعممون صفة التقدم هذه على قيم ومعتقدات وثقافات الأقطار التي تنجزه، ثم يقارنون بين ذلك التخلف المتفشي والفوضى الضاربة في مجتمعاتهم أنفسهم، ثم يعممون صفة التخلف هذه على ثقافاتهم ومعتقداتهم وقيمهم ونظم حياتهم التي يفرضها الآباء البالغون بالإلزام القسري والإلقاء الذي يفتقر إلى الوضوح والإقناع والمصداقية، ثم تكون نتيجة هذه المقارنة هي إدانة حاضرهم ومحتويات ثقافتهم ونظم حياتهم والشك بتاريخهم والتشوف لمستقبلهم الذي يملكون فيه زمام أمورهم ويصبح بأيديهم تقرير مصير القيم والمعتقدات والعادات والتقاليد والنظم المفروضة عليهم!! ومصير المؤسسات التي ترعى هذه وتتولى إشاعتها وتفسيرها!!.

والسبب الثالث: أن الحاجة ماسة لتحرير نظم الرتبية والتعليم في الأقطار العربية من سيطرة وزير التربية والتعليم الذي يمارس عمله بشكل فردي انطلاقاً من التوجيهات التي صارت تمليها

مؤسسات العولمة المعاصرة بقيادة البنك الدولي وأقرانه الذي يتدخل في تخطيط المناهج وتدريب المعلمين وتنفيذ البرامج التعليمية لما فيه مصلحة أسواق العولمة المعاصرة.

ولمواجهة هذا العبث التعليمي لابد أن تمارس الشعوب مسئوليتها من خلال مجالس تربوية من الشعب مباشرة لتشرف على تخطيط التعليم وتنفيذه انطلاقاً من حاجات الأمة والتحديات التي تواجهها كما هو الحال في الولايات المتحدة الأمريكية، وفي اليابان ودول شرق آسيا.

والسبب الرابع: وجوب التصدي لعمليات التخريب التعليمي الذي تمارس مدارس هدفها اقتلاع ناشئة العرب من أصولهم العقدية والثقافية والتاريخية واللغوية، خاصة وإن هذه المدارس زادت نشاطاتها في السنوات الأخيرة وأخذت كثير منها يطبق نظام التعليم البريطاني أو الأمريكي بشكل مباشر، وصار هذا الاغتراب نموذجاً تحتذيه مدارس خاصة بنشئوها مواطنون عرب بدافع الربح المادي. ولاشك إن إرسال الناشئة إلى هذه المدارس أمر له خطورته لأن المحصلة النهائية لعملها هي سلخ أجيال الأمة من دينهم وثقافتهم وإلحاق الضرر بهويتهم ثم إلقاؤهم في متاهات الضياع الثقافي والعقائدي. إن الحجة الوحيدة التي يتذرع بها أنصار هذا اللون من التعليم المغترب لا تساوي الضرر الذي ينتج عنه. وهي حجة الوحيدة التي يتذرع بها أنصار هذا اللون من التعليم المغترب لا تساوي الضرر الذي ينتج عنه. وهي حجة تدعي أن إتقان اللغة

الإنكليزية أصبح ضرورة ماسة لمتابعة المعرف والتفوق في العمل. وإذا سلمنا بهذه الدعوى ألا يتم إتقان هذه اللغة خارج هذه المدارس ومن خلال محتويات مناهج تستمد محتوياتها من عقائد الأمة وتاريخها وثقافتها؟ لقد أصبح واضحاً تماماً الوضوح ضرر هذه المدارس، فالطلاب أصبحوا عاجزين عن التحدث بالعربية، مبتورين عن مصادرها الفكرية والأدبية، ومن السهل عليهم التواصل مع من حولهم بالإنكليزية. وتتضاعف خطورة هذه المدارس إذا عرفنا أن غالب القيادات المستقبلية من أبناء النخب السياسية والاقتصادية يتخرجون من هذه المدارس، ويمكننا أن نتصور حجم الكارثة التي تلحق بأمة يقودها خريجون جلودهم وألوانهم عربية، وقلوبهم أمريكية وبريطانية وتحتقر كل ما هو عربي!! أو ليست هذه هي الردة بأوسع معانيها؟

والسبب الخامس: هو وجوب تحرير التربية العسكرية من نظم "القولبة العقلية والإرادية" فمنذ قرنين وهذا النوع من التعليم ينجب قيادات وجنوداً لا انتماء لهم إلا لمن يدفع الراتب؛ ولا ولاء إلا لمن يؤمن لهم التأمين الصحي، والإسكان، ومكرمات التعليم المجاني. وهذه أهداف موقوتة وسوف يتوقف العمل بها حالما تنتهي إسرائيل مهمتها وتكتمل رقعتها المؤملة، وسوف يجد العسكريون أنفسهم وقد نزل بهم أبشع أنواع الاحتقار والإهمال لأن من لا فائدة فيه لأهله لا فائدة منه لغيرهم.

ويقيني أن المجتمعات العربية المعاصرة إذا لم تقم بمراجعة

جذرية شجاعة مبصرة، وحركة تجديدية واعية مصلحة لثقافاتها ومفاهيمها وقيمها وتقاليدها ونظمها وولاءاتها وشبكة العلاقات فيها، وتخطط لتطويرها تطويرًا يحقق لها المعاصرة ويحفظ لها الأصالة، فسوف تواجه مستقبلاً كالذي واجهته الشيوعية في الاتحاد السوفيتي، على أيدي جيل جورباتشيوف وشيفرنادزه ويلتسن!! ثم يكون العالم العربي هو الثاني الذي ينهار ثقافيًا واجتماعيًا وسياسيًا!!

والتوصية الثانية: هي الحاجة إلى إخراج جيل جديد من المصلحين الذين يعون تفاصيل مسار الانحراف في كل من الأقطار التي توصف بالتخلف ـ خاصة الأقطار العربية ـ والأقطار التي توصف بالتقدم ـ خاصة أمريكا وأوروبا ولعل النظر العلمي ـ الموضوعي ـ يكشف أن مسار الانحراف في الأقطار العربية يبدأ من المظهر السياسي وينتهي في المظهر الاجتماعي. أما في الغرب فالمسار يبدأ من المظهر الاجتماعي وينتهي في المظهر السياسي، والأزمة السياسية التي تعاني منها الأقطار الإسلامية تساوي في استفحالها واستعصائها على العلاج الأزمة الاجتماعية في أمريكا وأوروبا، والأزمتان سببهما واحد هو عدم الاهتداء ببصائر الوحي في ميدان الأزمة. فالغرب يتنكر لتعاليم الله في المجالات الاجتماعية والأخلاقية ولكنه في ممارسته السياسية يقترب من تطبيقات توجيهات الوحي في الشورى والعدل والإعداد، وأما الأقطار الإسلامية فهي تتنكر لتعاليم الوحي في ميادين السياسة وتقترب من توجيهاته في ميادين

الأخلاق والتواصل والتراحم. ولكن كلا التطبيقين جزئي يقتفي ببعض ما جاء في الكتاب ويتنكر للبعض. وأهمية هذا الوعي أن الأجيال الناشئة التي نخشى أن تحدث على أيديها البروسترايكا المدمرة لا تعي هذا الفرق في المسارين، ولا تعي أن عاقبة المسارين واحدة مادام كلاهما يصطدمان بسنن الله في التاريخ والاجتماع الإنساني، وإنما تقارن المسار الجاري في الأقطار العربية الإسلامية بنظيره في الغرب فتحكم بفساد الأول وصلاح الثاني فتفارق الهدى وتقع في الضلال.

والتوصية الثالثة: هي بلورة تصور شامل لتحقيق التكامل بين ممثلي: المعرفة، والقوة، والمال في المجتمعات العربية وعدم ترك الفرقاء الثلاثة ليناقض بعضهم بعضًا. وذلك من خلال إقامة مراكز البحوث ومراكز الدراسات التي تهيئ اللقاءات الدورية وتبادل المعلومات والخبرات بين الجميع بغية تنسيق الأنشطة والممارسات التي يقوم بها كل فريق، والعمل على مراجعتها وتقويمها وتعديلها وتطويرها حسب الخبرات والمعلومات المتجمعة.

والتوصية الرابعة: هي بلورة تصور شامل لـ (حقوق الإنسان) في الأقطار العربية بما يكفل له إشباع حاجاته الإنسانية ابتداء من حاجاته الجسدية، ثم حاجات الأمن، وحاجات الانتماء، وحاجات التقدير، ليكون الدافع الأقوى في حياته هو الحاجة لتحقيق الذات من خلال إنجاز ما تؤهله كفاءاته وقدراته واستعداداته.

والتوصية الخامسة: هي العمل الجاد لمحو (الأمية) التي

تعانيها مختلف المؤسسات والجماعات بمن فيها الحركات الإصلاحية التي تحصر تطبيقات الشرائع والقوانين في ميادين الأشكال دون الأفكار والأعمال، وفي حياة الأفراد دون الجماعات. وأهمية هذا المحو أن المعنى الشامل للأمية لا يقتصر على عدم القراءة والكتابة، وإنما الأمية درجات وفروع تبدأ من أمية القراءة والكتابة ثم تتدرج في مستويات المعرفة وتتوزع في ميادينها. فهناك أمية الفهم والتفكير، وأمية التنظيم، والأمية السياسية، والأمية العسكرية، والأمية الاقتصادية وهكذا. والقرآن لا يقتصر في إطلاق الأمية على الذين لا يقرؤون ولا يكتبون، وإنما أطلقها أيضًا على من يقرؤون ولا يفهمون، وذلك عند قوله تعالى:

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ (البقرة: 78).

ولقد فسر ابن تيمية هذه الآية فذكر أن الأميين هنا هم الذين يتلون القرآن بلا فهم ولا دراية، وأن معنى قوله تعالى: ﴿ إِلا أَمَانِيّ﴾ أي تلاوة بلا فهم. ولذلك قال تعالى: ﴿لاَ يَعْلَمُونَ الكِتَابَ﴾ ولم يقل: لا يتلون. ويضيف ابن تيمية أن سوء الفهم هذا هو الذي جعل الخوارج يخرجون ببدعة تكفير المسلمين، وأن صحة الفهم هي التي ميزت منهج السلف من أهل القرون الأولى [1].

(1) الدكتور ماجد عرسان الكيلاني، الفكر التربوي عند ابن تيمية، (المدينة المنورة: دار التراث، 1407هـ - 1986م) ص 190.

والحقيقة أن الأمية ليست عجزًا عن القراءة والكتابة فحسب وإنما هي أيضًا منهج تعليمي وعادات تفكير تبدأ من (محاكاة الأم) خلال مرحلة الطفولة - أي خلال مرحلة الاعتماد على الغير - فإذا استمر هذا الاعتماد استمرت هذه الأمية معه. وهذا النوع من الأمية لا يقتصر على الأفراد وإنما يصيب الثقافات التي تحول دون حرية التفكير والتعبير والاختيار، الأمر الذي يؤدي إلى إعاقة القدرات العقلية وعادات التفكير والشعور عن النمو وبلوغ درجة النضج، وبذلك يستمر الفرد في الأمية الثقافية خلال مراحل النضج الجسدي في ميادين الحياة المختلفة وإن تخرج من الجامعات وحصل على الشهادات. وتتجلى هذه - الأمية الثقافية - في أمرين:

الأول: القصور عن فهم الواقع والبيئة المحيطة.

والثاني: اضطراب نظام القيم الموجهة لشبكة العلاقات الاجتماعية بحيث تهبط القيم الفكرية إلى أدنى درجات سلم القيم، بينما تحتل قيم القوة والثروة والجاه والنسب أعلى هذا السلم. ونتيجة لذلك لا يفيد - في هذا اللون من الثقافة الأمية - إقامة مؤسسات التعليم والطباعة والنشر والثقافة والإعلام، لأن ثمارها من الشهادات والمؤلفات والدراسات تخدم (أهداف) الأمية الثقافية، أي هي تبقى مجرد حلي اجتماعية وحضارية يتباهى بها الأفراد والعصبيات الفرعية ويتنافسون، ويحاكي بها المجتمع غيره من المجتمعات الأخرى. أما (نتائجها) فتكون العقم الاجتماعي وعدم الفاعلية لأنها لا تتحول إلى تطبيقات ومؤسسات بل تبقى مجرد

شعارات ويافطات. وإلى هذا النوع من التعليم والثقافة يشير قوله ﷺ: **(اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع)** [1].

ولقد انتبهت منظمة اليونسكو للتربية والثقافة والعلوم إلى التطور في معنى الأمية فأعادت تعريفه لتقول: إن الأمية المعاصرة هي العجز عن التفكير العلمي والعجز عن تعلم الجديد[2].

أي أن الأمي الجديد هو من قعد عن البحث والدراسة واعتمد على ظنونه، ولم يتبع المنهج العلمي في سياساته وممارساته. وبذلك يكون هناك الفرد الأمي، والجماعة الأمية، والحزب الأمي، والحكومة الأمية، والدولة الأمية، والشعب الأمي، والأمة الأمية وهكذا. ومازال العرب ـ الذين وصفهم القرآن بـ (الأميين) يعتمدون منهج الأمية في إدارتهم ومؤسساتهم وسياساتهم لأنهم مازالوا (يظنون) للأحداث مسارات وللمشروعات نتائج كتلك التي يشتهونها، ومازالت كتبهم ومقالاتهم وخطبهم ومحاضراتهم تقفز من خطوة الإحساس بالمشكلة إلى إصدار الحكم وتصور النتائج دون المرور بخطوات تحديد المشكلة وجمع المعلومات وتصنيفها وتحليلها وتقييمها، ودون الرجوع إلى علماء مختصين موثقين ومصادر أصلية محددة.

---

(1) صحيح مسلم، كتاب الذكر. وسنن الترمذي، كتاب الدعوات.

(2) ايدجار فور، تعلم لتكون، ترجمة د. حنفي بن عيسى (الجزائر ـ اليونسكو، 1976م). ص 54-277.

ولعل هذا هو الفارق الرئيسي بين الأقطار التي توصف بالتقدم وتلك التي توصف بالتخلف. ففي بلد ـ كالولايات المتحدة مثلاً ـ هناك عشرات الألوف من المختصين الباحثين الذين يقيمون في مراكز البحوث وخزانات الفكر المسمّاة Think thanks ثم يلقون نتائج دراساتهم وأبحاثهم شهريًا في أماكن العمل المختلفة على ذوي الاختصاص من الإدارات والشركات والقيادات العسكرية والسياسية بمن فيهم أعضاء الكونجرس وإدارة الرئيس قبل أن يقدم هؤلاء على أي تخطيط أو يتخذوا أي قرار!!

وأخيرًا إن التحدي الكبير الذي يواجه المجتمعات البشرية على المستويين الإقليمي والعالمي ليس هو ـ خطر الحروب وأسلحة التدمير الشامل وانتشار الإرهاب كما يشاع ـ وإنما هو خطر الزلازل الجارية في ميادين القيم. وسوف يشهد القرن القادم اختفاء ثقافات وذوبان مجتمعات من خلال عمليات الانصهار والتحليل والتركيب الجارية في ميادين القيم. والمجتمعات التي تتحمل فيها نظم التربية ومؤسسات التوجيه مسئولياتها إزاء الزلازل الجارية في ميدان القيم سوف تواكب مجرى الحضارة المستقبلية وسوف تسهم في تحسين كيان الإنسان ونقله من التخلف إلى الرقي. أما المجتمعات التي تترك للاضطراب القائم في ميدان القيم ليسخرها دون أن تسخره، وليتحكم باتجاهاتها دون أن تتحكم به، أو تكتفي بالسلبية والآبائية فسوف ينتهي بها هذا الاضطراب إلى أحد مصيرين: إما الارتداد إلى عصر الكهوف وحياة الغابة، وإما الذوبان في بوتقة التفاعل الجاري بين القيم العالمية المختلفة.

إن ما يجري في عالم اليوم هو عمليات مخاض وولادة، وعمليات موت ودفن: ولادة الذين يتهيئون للحضارة العالمية الجديدة ويعدون لها عدتها ومتطلبات الحياة فيها، وموت المتشبثين بالعصبيات القديمة الرافضين سماع نداء الطور العالمي الجديد، والذين يعانون من آثار العمليات الجراحية في كياناتهم الاجتماعية ويندبون العدل الدولي ويأخذون على الجراحين الدوليين الكيل بمكيالين اثنين، أن يعوا حقيقة الحقبة التاريخية الجديدة وعدتها ومتطلباتها. وأنهم لن يستطيعوا الإفلات من عمل السنن التاريخية وقوانين الحقبة العالمية القائمة؛ فإما أن يحققوا الوحدة قولاً وعملاً، والحرية تطبيقًا وإدارة، والعلم تفكيرًا وتقنيًا، والانتماء الإسلامي حياة ومنهجًا، وبذلك يبقون في المسار التاريخي ويدخلون الحقبة التاريخية الجديدة وإما أن يستمروا في خداع أنفسهم والتلهي بالأماني وبذلك ينزلون بأنفسهم تطبيقات الحتمية التاريخية ويخرجون من التاريخ أفرادًا وجماعات، وإن سبق المقتولون قاتليهم في الخروج!! وسوف يستمر سيرهم في الحياة البرزخية إلى حيث يثور التلاوم بين (قطعان الأكثرية المستضعفة)، ونخب الأقليات (المتسلطة) كالتالي:

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾

وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾

(سبأ: 31-33).



المصادر والمراجع

أولا: المصادر العربية

1- القرآن الكريم.

2- الحديث الشريف.

3- أركون، محمد، تاريخية الفكر العربي الإسلامي، بيروت: مركز الإنماء القومي، 1986.

4- بشور، منير، التربية العربية، بيروت، دار نلسن، 1995.

5- حنفي، حسن، من العقيدة إلى الثورة، 5 أجزاء، بيروت: المركز الثقافي العربي، 1998.

6- الخولي، أسامة أمين، العرب والعولمة، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2000م.

7- فور ايدجار وآخرون، تعلم لتكون. ترجمة: د. حنفي بن عيسى، الجزائر ـ اليونسكو، 1676.

8- ابن تيمية، الفتاوي، علم السلوك، جـ10 طبعة الرياض، 1381 هـ 1961-.

9- القباني، عبد العزيز، العصبية بنية المجتمع العربي، بيروت: دار الأفاق الجديدة، 1997م.

10- (الكيلاني)، د. ماجد عرسان، فلسفة التربية الإسلامية، دبي: دار القلم، 2003.

11- الكيلاني، د. ماجد عرسان، أهداف التربية الإسلامية، دبي: دار القلم، 2004.

12- الكيلاني، د. ماجد عرسان، مناهج التربية الإسلامية، دبي: دار القلم، 2004.

13- الكيلاني، ماجد عرسان، الفكر التربوي عند ابن تيمية، المدينة المنورة: دار التراث، 1407هـ 1986- .

14- النحوي، عدنان، موجز النظرية العامة للدعوة الإسلامية، الرياض: دار النحوي، 1999م.

15- الوردي، علي، مهزلة العقل البشري، لندن: دار كوفان، 1994م.

16- وطفة، على أسعد، بنية السلطة واشكالية التسلط التربوي في الوطن العربي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1999م.

ثانيًا: المصادر الأجنبية

17- Albanese, Robert, Managing, Tward Accountability for Performance, 3rd.ed. (Home Wood , Illionois, 1981).

18- Amey, Lioyd, The Efficiency of Business Enterprises, (New York: Augustus M.Kelly publishers 1970.

19- Bowles, Samuel & Herbert Gintis, Schooling in Capitalist America, New York: Basic Books. INC., Publisher, 1976.

20- Bulmer, Simon, Efficiency, Democracy and West German Fedralism, (Department of Government, Victoriq University of Manchester, UK, 1989.

21- Chomsky, Noam, Detering Democracy, New York: Hill qnd Wang, 1992.

22- Coughlin, richard M., Morality, Rqtionality and Efficiency New York: M. E. sharpe, Inc 1991.

23- Covey, Stephen R. The 7 Habits of Highly Effectie People, New York: Fireside Book, 1990.

24- Cummings, William K. and Others (ed). The Revival of Values Education in Asia and the West. Oxford & New York: Pergamon Press, 1988.

25- Freire, Paul, Education For Critical Consciousness, New York: The Continuum Co. 1989.

26- Hersey, Paul and Ken Blanchard, Management of Organizational Behavior, Englewood cliffs: N.J. Prentice-Hall Inc. 1982.

27- Ortega, Jose Y. Gasset, The Revolt of the Masses, tr. New York London: W.W. Norton & Co. 1956.

28- Peak, Lios, Learning to Go to School in Japan, Berkeley & Los Angeles: University of California Press, 1991.

29- Shields, James J. Japanese Schooling: Patterns of Socialization, Equality and Political Control. 3rd. ed. The Pennsylvania State University Press, 1993.

30- Turner, Charlie G. Japanese Dynamic Efficiency in the Global Marker, New York: Auorum Books, 1991.